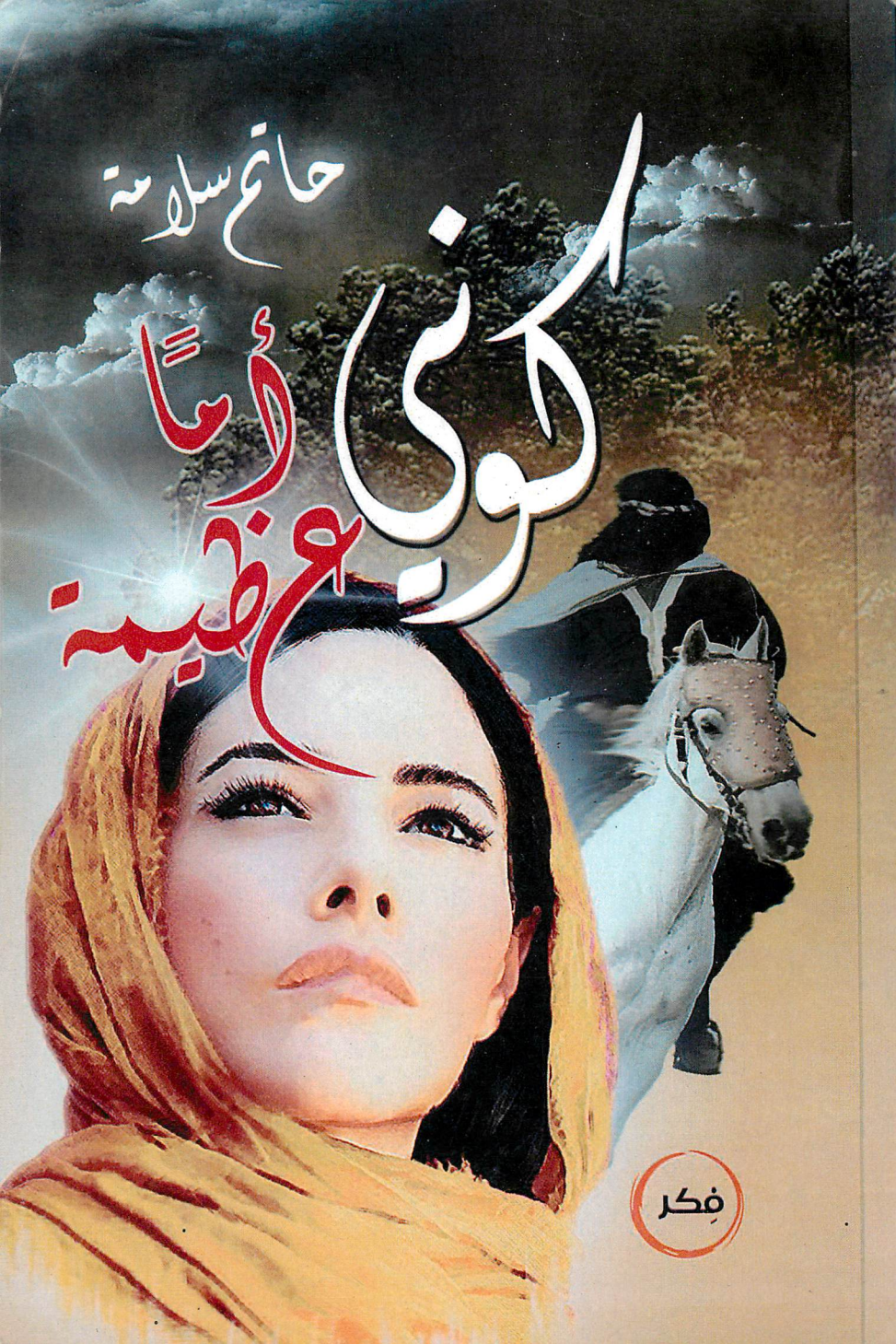

حاتم سلامة
كوني
أماً
عظيمة
فكر

كوني أماً عظيمة

فكر

حاتم سلامة

كوني أما عظيمة

فكر

حاتم سلامة

إصدار: أغسطس ٢٠١٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٢٢ / ٢٠١٧

منشورات دار لوتس للنشر الحر

أول شارع الملك فيصل – بجوار محطة مترو فيصل
الجيزة – مصر

كل ما ورد بهذا الكتاب هو مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلاً له غير منقول، وجميع الحقوق محفوظة له.

الغلاف والإخراج الداخلي:
دار لوتس للنشر الحر

مشـــروع
النشر الحر

أول دار نشر حـــرة
يملكها كل كاتب

Mob: +2 01091985809 - +2 01272143509
WhatsApp: +2 01091985809
Site: www.Lotusfreepub.com
Mail: Lotusfreepub@gmail.com
F Account: www.facebook.com/lotusfreepub1
F Page: www.facebook.com/lotusfreepub

إهداء

أهدي سطوري لأمي الحانية التي كانت
أول من تعملت منها معنى الحلال والحرام
أهديها للتي كانت أول واعظ في حياتي
حينما عرفتني يومًا بأنني سأدخل نار الله
لو كنت شقيًا مفسدًا
أهديها للتي عملتني معنى البر والكرم
والأدب والخلق الرفيع.

مُقَدِّمَة

وقف الكاتب الغربي يومًا ساخرًا في ندوة سياسية، وتوجه بسؤالٍ لشابة فلسطينية وسألها متهكمًا: بأي شيء ستحاربون لكي تنالوا مطالبكم من الطرف الآخر؟!

وهنا ذهل الحضور من إجابتها غير المتوقعة، والتي شرحتها قائلة: إنها سوف تتزوج وتنجب سبعة أبناء، لا تريد منهم سوى اثنين فقط، أما الخمسة الباقين فسوف تهبهم للقضية، ولن تحزن عليهم حين تراهم يستشهدون أمام عينيها واحدًا تلو الآخر.!

من حق المرأة أن تعتز بنفسها وتسمو بثقتها وتفاخر الرجال بأثرها ودورها، إن حاول أحدهم أن يتجاهلها أو يقلل من مكانتها يومًا ما، ولعلها لا تبالغ إن ذكّرت الرجال بأنها أعمق

منهم أثرًا في الحياة، أو أن مآثرهم وأمجادهم التي ينتشون بها لا تعجزها ولا تعلو عليها، لأنها في أصولها تعود إليها وتضاف إلى رصيدها، ولئن كان الرجال يهربون من هذه الحقيقة فإن هناك من آمن بها وأقرها بل وتباهى بها متواضعًا مبتهجًا، فقد كان معاوية ﷺ كلما نوزع للفخر، باهى المتفاخرين بأمه فيقول: أنا ابن هند!

ربما يرى كل منا أمه موئلاً للحب والحنان، لكنه نادراً ما يراها موطناً للفخر والمباهاة، بل من العسير أن تجد من يسير في الناس قائلاً كما قال معاوية: أنا ابن أمي!

لقد لعبت الأم دورًا كبيرًا في تاريخ أمتنا، وكانت لها مواقفها المشهودة في مناحى البطولة، فداءً وصمودًا وصبرًا وجلدًا، عرفت رسالتها، وأدركت أن دورها في تحقيق العزة لا يقل شأناً عن دور الرجال، بل ربما يفوقه خطراً وعظمة وأهميةً، لأنها مربية الرجال، وصانعة الأبطال، وصائغة النفوس والعقول، هي التي تزرع ما تحصد الأمة، فإن زرعت في أولادها عزةً، حصدت الأمة عزة، وإن زرعت الجبن والخور والخذلان كان الضياع نصيبنا والهوان! وهو الحال يوم أن جهلت الأم رسالتها،

وغفلت عن دورها، فما تراها إلا وقد أعدت جيلاً لا رجولة فيه ولا مبادئ، لا همة لديه ولا عزة حتى صرنا فريسة للاستعمار، ومطيةً للطامعين.

أما اليوم فلابد أن نغير من أنفسنا، فنوجد وننشئ في حياتنا هذه الأم التي تعرف قيمتها، وتؤمن بواجبها، وتزرع في نفوس أبنائها الهمة والقوة، وترضعهم الإباء والشمم، وتفطمهم على الشجاعة والإقدام، تعلمهم أن عليهم واجبًا يؤدونه، وأن في عنقهم رسالة يحملونها، وغايةً لابد من بلوغها.

ويوم أن تقوم الأم بهذا الدور، وتضطلع بهذا الواجب، فإنه ميلاد جيل النصر المنشود، الذي يحطم القيود، ويعيد مكانة أمته، ويقود الإنسانية للخير والعدالة، ولعلي هنا وعلى بياض هذه الصفحات المتواضعة أستطيع الإشارة لدور الأم ومكانتها في حياة كثير من القادة والعظماء والأدباء والمفكرين، وكيف كانت سبيلاً تربعت عبره أمتنا على طريق المجد، هذه الأمة التي أشاد دينها بالأم وأعلى مقامها وأمر ببرها. لقد حاولت عرض بعض النماذج التي حفلت بها البشرية مسلمون وغيرهم علماء،

وأدباء عباقرة، ومخترعون، وقادة وزعماء، كلهم حينما فتشنا في حياتهم وجدنا أن درب العبقرية الذي سلكوه لم يرشدهم إليه إلا أمهات يملكن القوة والإرادة والتصميم والإصرار ويدفعنهم بالتشجيع والتحفيز والتأثير الكبير في سلوكياتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، وقد نوعت هذه المثل الراقية والصور الآثرة التي تحكي وتعبر عن صلابة الأم في النهوض بأبنائها وإدراجهم إلى عالم العباقرة، ودفعهم إلى النهوض بأبنائها، وإدراجهم إلى عالم العباقرة، ودفعهم إلى التميز والزعامة في الحياة ..وتحديها لكل العوائق التي تحول دون نُبوغهم ووصولهم إلى مسار العظماء..! إنني أقدم هذا السفر اليوم في زمن فقدت فيه الأم كثيرًا من مقومات العظمة والبطولة والقدرة القوية التي تؤهلها لتخريج جيل عظيم، وشخصيات سامية تُسعد الحياة وترتقي بالبشرية وتحمل على عاتقها صبغ الدنيا بقيم الحق والعدل والمساواة.

حاتم إبراهيم سلامة

الأم التي نريد

نحن من أنصف المرأة

تحكي الأسطورة أن الإله «بروميثوس» تجرأ وسرق سر المعرفة على حين غفلة من «زيوس» كبير الآلهة، وعلى غير ما يرغب كبير الآلهة؛ يبوح السارق بهذا السر للإنسان، ويفقد كبير الآلهة صوابه حين يجد سر المعرفة في متناول الإنسان الجاهل والذي أصبح مثله عالما بالأسرار..

من أجل ذلك يوقع كبير الآلهة بمن أذاع السر أقسى العقاب، ثم يتعقب غريمه الجديد وهو الإنسان بالويل والثبور وعظائم الأمور، فيرسل إليه «باندورا» كأول أنثى تدب على الأرض، ومعها صندوق سحري يحتوي على بذر الشر في هذا العالم..

ومن هذا المنطلق روجت تلك الأسطورة لهذه الفكرة المزعجة عن المرأة، فهي كائن شرير جاء ليكون مصدر شر ونقمة على

البشر، وعنها كذلك نشأت فكرة العداوة بين الرجل والمرأة، والبغض الغير مبرر للكثيرين تجاهها.

وفي العهد القديم تم تصوير المرأة بأنها من أخرجت آدم من الجنة، حينما استمعت للحية فأغوتها للأكل من الشجرة ودعت زوجها ليفعل فعلها فاستحقا العقاب على ذلك، وتعريا بعد أن كانا مستورين.

«وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟

فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت؛ لأني عريان فاختبأت

فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟

فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني فأكلت فقال الرب الإله للمراة ما هذا الذي فعلت؟

فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت.

فقال الرب الإله للمرأة: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين

نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة تكثيرًا أكثر اتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك، وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك.»[1]

هذا ما جاء في العهد القديم حينما عرض ما جرته على زوجها ونسلها والبشرية كلها من ويل وثبور وعناء كبير. أما القرآن الكريم فكان له معها شأن آخر حين دافع عنها وأنصفها وبين أن الشيطان وحده سبب الخطيئة وليس المرأة، وأنه هو الذي أغوى آدم بالخلود ووعده بالملك، قال اللَّهُ تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (٥) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (٥) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (٥) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (٥) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (٥) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ

(١)- سفر التكوين ٣ : ١-١٧

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ ﴾[1]

لا يزال الإسلام بحضارته الباهرة -يومًا بعد يوم- يحوز قصب السبق فيما وصلت إليه البشرية من سمو ورقي في احترام الإنسان وتقدير آدميته، يقول اللَّهُ تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [2]

ويقول ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»[3]

ولعل المرأة واحترام ذاتها وتقدير مكانتها وتعظيم أمرها، من أبرز ما اهتم به الإسلام وأكد عليه، فقد جاء الإسلام في عالم يمتهن المرأة ويحتقر نوعها وينظر إليها نظرة ازدراء ودونية، فجعل لها كيانها وحافظ على شخصيتها وعرف لها حقوقها وقدرها، وجعل لها رأيها وأقر لها ذاتية معتبرة، فكانت شاهدة وحاضرة في كل الميادين، تساهم وتشارك وتؤدي دورها في خدمة الإسلام

(١)- سورة طه: ١١٦ - ١٢٣

(٢)- سورة الإسراء ٧٠

(٣)- رواه أحمد

وبناء حضارته..

ومع هذه الحقائق الثابتة والتاريخ المشرف في تقدير المرأة، ما زال الإسلام يتهم فيها ويؤتى من قبلها ويشاع إفكاً بأنه يهينها ويهضمها حقها ويظلم إنسانيتها ويعيدها من زمن التقدم والنور إلى ما كانت عليه في زمن التخلف والتراجع..

فإذا ما ذكر الإسلام في أي مكان في العالم، استحضرت أذهان السامعين مأساة المرأة وما تلقاه من قهر وظلم وكبت وجور.!

كل هذا الزيف والافتراء تواجهه حقائق الإسلام التي لا تجد من يبرزها ويدافع عنها ويدحر ما يلقى عليها من تشويه، ولعل بعض المجتمعات المسلمة، وما تقدمه من عادات وتصرفات ليست من الإسلام في شيء، هو الذي مكن لهذه الصورة وساعد على تكوين هذا الافتراء وإلصاق تهمته بالإسلام.

إن بعض المسلمين اليوم ينظرون للمرأة نظرة لم يكن أهل الجاهلية يأتون بمثلها في الامتهان والتنقيص، وكثير منهم لا يرى لها حقًا في الحديث والتعليم والوظيفة والقيادة وربما لا يرى لها حقًا في أن تسير في الشوارع، بل يرفعون شعارهم من قول القائل:

ما للنساء وللكتابة والعمالة والخطابـــة
هذا لنا ولهـن منـا أن يبتن على جنابة

وإذا كنا اليوم ندافع عن الإسلام ونرد عنه ما يرمى به من شبهات زائفة، فإننا مطالبون في الوقت ذاته، وبنفس القوة التي نواجه بها أعداءه، أن نزلزل الأرض تحت أقدام هؤلاء الجهلاء المأفونين، وأن نمزق في أذهانهم تلك الصورة الرجعية المتخلفة عن المرأة، التي لم يصورها دين، ولم يأت بها وحي، بقدر ما صورها غباؤهم، ونسجها خيالهم المريض.

الأم أساس الحضارة

لقد أعطى الإسلام للمرأة قيمتها ومنحها حريتها وأقر كرامتها.. أعطاها ذلك في زمن كان يحتقرها ويهين بشريتها ويبخسها حقها، فجعلها حاضرة في واقعه وقضاياه تذهب وتجيء، تعمل وتكد، تشارك وتعاون، حتى في أقسى المواقف وأشد اللحظات كان لها حضورها المشهود، فتذهب للجهاد تعالج المرضى، وتناول النبل، وربما تقاتل في بعض الأحيان.

أما نحن.. فأهلنا عليها التراب باسم التقاليد والأعراف..
لقد كانت المرأة الغربية مظلومة مكبوتة مقهورة، وحينما تغير وضعها في العصر الحديث وتبدلت النظرة إليها؛ زاد وعيها وإدراكها بمشكلات أمتها، فلما كانت أمًا؛ أوقفت ذريتها على سبل العلاج وطرق النهوض..

إن المرأة الواعية المتعلمة الحاضرة كان لها النصيب الأوفى من هذه الصورة الزاهية.. ومنذ عشرات السنين ضرب «سلامة موسى» مقارنة بين المرأة الغربية التي أبصرت قيمة وجودها في الحياة، والمرأة الشرقية التي انعزلت وتخفت حتى عن أشعة الشمس فأصابها وأصاب مجتمعها ضعف وذبول.

لقد ضرب مثلاً بين الوعي والجهل، وماذا يفعل كلاهما في مصير المرأة فقال: «روت الصحف الإنجليزية حادثين غريبين لكل منهما مغزى يجب أن يفقهه القاريء ويطبعه في ذهنه طبعاً لا ينمحي، فالحادث الأول أن فتاة أميريكية عبرت بحر المانش سباحة، وهذا البحر أو المضيق يبلغ عرضه ٣٦ كيلو متراً، وكان أبو الفتاة في زورق يشجعها على العبور، ونجحت الفتاة وانتصرت على الأمواج، وأخذت الصحف تنشر صورها معجبة بقوتها وجرأتها وثباتها»

وذكر أيضا حادثًا آخر في (كلكتا) المدينة الشهيرة بالهند أن نحو ١٠,٠٠٠ شخص يموتون بالتدرن كل عام، وأن نسبة الوفيات بين الجنسين هي ست من النساء إلى واحد من الرجال، وبعبارة أخرى تقول هذه الصحف: إنه يموت بالتدرن في تلك المدينة

العظيمة في كل عام نحو ٨٥٠٠ امرأة، و١٥٠٠ رجل، وعزت الصحف هذه الزيادة العظيمة في وفيات النساء إلى العادة المتبعة في الهند من انعزال المرأة ومنعها من الحركة والسعي واضطرارها إلى الانزواء في عقر دارها بعيدة عن ضوء الشمس حيث تعيش في خمول ودعة لا تتحرك عضلاتها ولا ينشط دمها.

ومثل هذه الحال داعية إلى تفشي مكروب التدرن في جسمها، وعبرة ذلك كله لي ولك أيها القاريء أن تعرف أن المرأة هي أساس الحضارة الآن، وأن الفرق بين انجلترا السائدة والهند المسودة هو فرق بين المرأة الإنجليزية التي تمارس الرياضة وتقوى، وبين المرأة الهندية التي تنزوي وتنعزل وتضعف، ولهذا الفرق صدى في جميع أحوال الأمة، في خلق الرجال وتعليم الأطفال، وفي نظام البيت، ودستور الأمة، وفي كل شيء آخر حتى في الآداب والفنون.!

ولِمَ لا؟! أليست المرأة هي الأم، وهي التي تربي أطفالها، فإذا كانت تكبر من شأن الصحة والقوة، جعلتهم يكبرون من شأنهما أيضاً؟ أو ليست هي ربة البيت؟! بها ينتظم وبها تنضبط أحواله من مال واقتصاد؟ فإذا كان البيت مهد الحضارة لأنه المدرسة الأولى التي يتربى فيها المرء وهو أيضًا المملكة الصغيرة التي يتعلم فيها الصبي ضبط النفس وأدب المعاشرة وعادات

النظافة والمواظبة والمثابرة، فإن المرأة التي هي محور هذا البيت هي أساس هذه الحضارة. وإذا اختل الأساس كما هو واضح في المثال الذي ذكر عن الهند اختل البناء، وإذا صح شادت الأمة بناءها شامخًا»[1].

إن المرأة في تاريخ أوروبا كانت أكثر المخلوقات التي قاست وعانت من الظلم والإجحاف وإهدار كرامتها وآدميتها، ولولا الظروف التي ألجأتهم للاحتياج إليها، لظلت إلى اليوم راتعة فيما كانت فيه من جهالة بقيمتها وظلم لعنصرها، إن رجالهم قد انتدبوا للحرب فلم يجد المجتمع أمامه غير المرأة لتأخذ بناصيته وتقوم بأعبائه، فخرجت للعمل وتحملت المسؤولية وشغلت منافذ الحياة.!

وحينما زار الكاتب والأديب الكبير «أحمد أمين» أوروبا دارت في خياله هذه المقارنة السريعة بين حال الشرق والغرب، وكان أكثر ما استرعى انتباهه وضع المرأة هناك وكيانها في المجتمع، وأهمية مركزها في الحياة، فقال: «لو نسبت الفضل الكبير في المدنية الحديثة لكان أكثره يرجع إلى المرأة، فالمرأة هي التي تربي الأمة، وهي التي تعود أبناءها النظام والأخلاق، والمطر هو الذي

(١)- في الأدب والحياة - سلامة موسى بتصرف.

يهييء الطبيعة ويصوغها صياغة جميلة ويكسو الحياة الصخرية الأشجار والنبات فيكون من ذلك منظر بديع، وعلى الجملة فالمرأة والمطر من وراء كل مظهر من مظاهر المدنية»[1]

ونحن هنا لا ندعو لتبديل نواميس الكون أو قلب موازين الخليقة، لتحل المرأة محل الرجل في كل مناحي الحياة كما هي دعوة المتغربين المهووسين الذين يغفلون كيف صان الإسلام مكانة المرأة، وإنما فقط نلفت للمعنى المتوازن في حضورها وشراكتها للرجل في قيادة المجتمع، وهو الأمر الذي أقره ديننا العظيم ورصدته سيرة نبينا الكريم ﷺ.

لقد أدركنا قبل أوروبا معنى وجود المرأة وإسهامها القوي في بناء الأمة والدولة والمجتمع. لقد كانت في ظلال ديننا حاضرة ماثلة موجودة، يؤخذ برأيها ويُعمل بقولها وتستشار في عظائم الأمور، لم تكن مزوية أو مسجونة، ولم تكن بهذه الصورة التي خيم عليها الجهل بالدين وجعلت منها عورة يجب إخفاؤها عن الحياة والأحياء.

لقد وصلها الإسلام بالحياة الإسلامية العامة، فأباح المسجد لها تَطرُقه مع الرجال خمسَ مرات في اليوم، ومكَّنها من الجهاد

(١)- حياتي - أحمد أمين.

إذا أطاقته، ويَسَّر لها الالتحاق بخدمة الجيش، تُمرِّض الجرحى، وتسقي العطشى، بل تُعين على نُصْرة الحق إذا وجب العونُ؛ فإن أم سلمة حملتِ السيفَ في موقعة أُحد ساعة الرَّوْع، كما قاتلت صفية بنت عبد المطلب في غزوة الأحزاب، وصرعت أحدَ اليهود، وولى عمر بن الخطاب «الشفاء» أمرَ السوق في المدينة، وكانت امرأة كاتبة[1].

كما خرج من سلفنا الصالح محدِّثات وشاعرات وعالمات وفقِيهات، ومفسِّرات، ومجاهدات.

❁❁❁

(١)- من مقال : وضع المرأة في الإسلام أ. د. عمر قريشي.. بتصرف.

الوظيفة الكبرى

إن البيت هو المؤسسة التربوية الأولى والأم هي عمادها، فالطفل لا يرى في جنبات البيت الذي يأوي إليه غيرها، فهي الأقرب إليه ترشده وتوجهه وتحوطه برعايتها وعنايتها وتعلمه كل شيء، وتقوم أخطاءه وتصحح مسار أخلاقه، كما أنه في مراحله الأولى يحتاج للعطف والحنان، وهو ما يكمن في طبيعة المرأة التي أوجد الله تعالى في قلبها رقة وشفقة وحنواً وتضحية من أجل فلذة كبدها التي تشعر أنه جزء منها فتتحمل عناءه وأعباءه صابرة سعيدة بلا ضيق أو ضجر، ومن هنا كانت وظيفة البيت للمرأة أقدس الوظائف وأجل الأعمال وأسمى الغايات.

وإذا كان رب الأسرة يرى في تعليم الذكور والعناية بهم رسالة كبرى لأنهم من يقودون المستقبل ويعمرون الدنيا، فإنه مخطيء

ضعيف البصيرة؛ فالعناية بالفتاة أعمق أثرًا في مستقبل الأمم والشعوب لأنها مهد الأجيال ومصنع الرجال والنواة التي تتشكل منها العقول والطباع. فإذا اعتنى بها كافلها؛ فإنه يضمن مجد أمته وعزة وطنه وشموخه.

لقد أشرنا إلى أهمية وضرورة تعليم المرأة ورقيها وتثقيفها وارتباطها بهموم أمتها ومشكلاتها، لتكون قادرة بما تمتلك من مواهب على العطاء والابداع، وأشرنا كذلك إلى حضورها ووجودها في قلب الأحداث، وهذا كله لا يمنع أو يلغي أن لها وظيفتها الكبيرة الضخمة في بيتها وبين أولادها، والتي لا يقدر عليها غيرها، والتي إن تخلت عنها فسدت الأسرة وانهار المجتمع وتفسخ الوطن كله.

إننا ندعو لشيء من التوازن في حياة المرأة، فليس معنى اهتمامها ببيتها أن نلغي وجودها وكيانها وعقلها، وليس معنى تأكيدنا على وجودها وكيانها، أن نعفيها من مسؤوليتها الكبيرة التي لا يستطيع غيرها أن يقوم بها. إننا نريد الأم الواعية التي تقوم برعاية بيتها وأولادها بشخصية قوية وعقلية حاضرة واعية مشاركة، ولو حدث خلل في هذا التوازن لاختلت مسيرة التربية وتعطلت مسيرة النهوض.

وليس في تصورينا للبيت بأنه الوظيفة الكبرى أي عدوان أو تحن على المرأة وحقوقها، ولكنه تأكيد لدورها الكبير، وانحيازُ لمهمتها السامية، وتصحيحٌ لمسارها القويم، ولفتٌ لانتباهها لما يجب أن يقع عليه اختيارها.

وقد تشعر بالتضحية والحرمان، ولكنه سيكون شعورًا زائفًا لو تأملت مسؤوليتها الجسيمة ودورها الفذ في مستقبل الأمة والذي إن شعرت بمكانتها فيه؛ فإنه يتضاءل أمامه أي شعور آخر، وليس من المعقول أن تجافي الأم فطرتها فتخرج إلى سوق العمل وميدانه فتشغل المناصب وتحتل المواقع التي تأخذ كل وقتها واهتمامها، بينما أبناؤها في البيت مهملون يفقدون الرعاية والاهتمام، فإن استطاعت أن تمنحهم ما يحتاجون فأهلا بها ونعمت، وإن لم تستطع فقد ضيعت وفرطت في أمانتها الكبيرة.

يقول جول سيمون: «المرأة التي تعمل خارج بيتها تؤدي عمل عامل بسيط ولكنها لا تؤدي عمل امرأة»[1]

وهذه زوجة رائد الفضاء الأمريكي «د. دون ليزي ليند» وتدعى «كاتلين ليند» تقول: «إنني أقضي معظم وقتي في البيت، وكسيدة فإنني أرى أن المرأة يجب أن تعطي كل وقتها لبيتها وزوجها وأولادها، ولازلت أذكر حديثًا لأحد رجال الدين

(١)- المرأة بين الفقه والقانون ص١٧٩.

ردًّا على سؤال أحدهم: إذا كان مصير المرأة بيتها فلماذا إذن تتعلم؟ فقال يومها لصاحبه: إذا علمت رجلاً فإنك تعلم فردًا، وإذا علمت امرأة فأنت تُعلم جيلاً أو أمة..»

ثم تقول: «وأنا مسرورة جدًّا من بقائي في البيت إلى جانب زوجي وأطفالي حتى في الأيام العصيبة – وأقصد الأيام التي كنا في حاجة فيها إلى المال – لم يطلب مني زوجي أن أعمل وكانت فلسفته أننا نستطيع أن نوفر احتياجاتنا الضرورية لكننا لا نستطيع أن نربي أولادنا إذا أفلت الزمام من بين أيدينا»[1]

أما الأم المعاصرة فقد شُغلت اليوم بقضايا تحرر المرأة وعمل المرأة وشخصية وكيان المرأة، شغلها كل ذلك عن بيت المرأة، أكبر وأهم حقيقة في حياتها، أضخم وأجل رسالة تقدمها لأمتها ووطنها ومجتمعها. إننا نؤكد على شخصية المرأة وذاتها حينما نواجه أولائك الذين يتهمونها بأنها لا تُحسن التربية، وأنها مهما قدمت فإن ولدها يظل طول حياته ينعت بأنه تربية امرأة، وهذه التصورات المشوهة نريد اجتثاثها من أفكارنا ورؤانا ومجتمعنا، فبين أيدينا صور لأولائك العظام الذين أثرت فيهم أمهاتهم ،واللاتي كُنَّ سببًا مباشرًا في نبوغهم.

(١)- رسالة إلى حواء ص٦١/٢، نقلًا عن جريدة الأنباء الكويتية .

كذلك نؤكد على دورها بجوار الأب، ونرفض أن ينسب تفوق الأولاد ونجاحهم له وحده من دونها، كما هو مشاع في مجتمعاتنا حينما يقال: «رجل من ظهر رجل»، أو يقال: «من شابه أباه»..ويتم بجهالة تغييب المرأة والحكم عليها بالفناء، لكن شعراءنا كانوا أوعى من هذه المفاهيم القاصرة حينما صدح حافظ رحمه الله بقوله:

مَن لي بتربية النساء فإنها ... في الشرق علّة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبًا طيب الأعراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

❁❁❁

الأم التي نريد

إن لفظ الأم قد ارتبط في حياة الغربيين بالمجد والفخار وعزة الأوطان، لأنها كانت الوسيلة القوية لغرس هذه المعاني في نفوس الناشئة. وكانت الأم الرومانية قديمًا تقول لولدها المحارب: «إما أن تأتيني بالنصر، أو تأتيني محمولاً على درعك»

وفي العدوان الإيطالي الغاشم على ليبيا، كان الجندي الإيطالي يخاطب أول ما يخاطب أمه وهو يلبس بذة الحرب ويستعد للرحيل فيقول: «أماه، أتمي صلاتك لا تبكي، بل اضحكي وتأملي، أنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا، سأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، سأحارب الديانة الإسلامية، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن»

وأمام هذا الشحن النفسي نتساءل باحثين عن دور الأم المسلمة اليوم فنتساءل كما قال أحدهم: «أين هي الأم المسلمة الواعية؟

التي تحفظ الإسلام زيًا وثيابًا، بعد أن تعيه حقيقة تحيا بها ووجوداً تعيش من أجله، أين هي الأم المسلمة الواعية؟ تلك التي تُحدث أبناءها عن عظماء الإسلام، وتثير فيهم الميل للتدين، وتروي هُيامهم لحب البطولة، فينشأون ومحمد ﷺ قدوتهم، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى في أذهانهم، وبطولات خالد وسعد وعقبة والقعقاع لا تفارق خيالهم. أين هي الأم المسلمة الواعية؟ التي تقدر أن تصنع من نفسها مربية ودليلاً، يحول بين الصغار وبين ما يذاع ويشاع، وما يسمع وما يرى من غثاء القول، ساقط الكلم، سقيم المعنى، خسيس الهدف، تحميه صحيفة ملونة مزخرفة، أو يردده وينقله جهاز تلفاز أو مذياع.

أين هي الأم المسلمة الواعية؟ التي تدرك من تربية الإسلام ما أدركت الأمهات الأول، فصنعن من الأبناء رجالاً قادوا الإنسانية لأرفع مستويات الحضارة السوية الواعية، ومن البنات نماذج خيرة للمرأة التي تفكر بعقلها، وتحنو بفطرتها وقلبها حتى يحيا وليدها بين خطين لا عوج فيهما ولا انحراف»[1]

«إننا نريد الأم الربانية التي تصنع من أبنائها رجالاً يقودون الإنسانية إلى قمة حضارية، ولا تربيهم على حب الشهوات والملذات لتقودهم إلى الهلاك، نريد الأم التي تحمل بين جنباتها

(١)- مواقف خالدة للمؤمنات : ليحيى آل شلوان.

قلباً فياضاً بالعواطف والمشاعر النبيلة لتشبع أبناءها؛ فتسري في نفوسهم الرحمة والمحبة والعطاء لبني جلدتهم، ولا تربيهم على القسوة والجفاء والعداء ليصبحوا قساة القلوب، عديمي الأخلاق. كذلك نريد الأم التي فهمت معنى الأمومة تضحية وعطاء وتوجيهًا وبناء، ولم تفهم من الأمومة الأنانية والتأفف والإهمال والتخلي لتقودهم إلى الضياع والانحراف»[1]

نريد الأم التي تُقدس رسالتها، وتدرك واجبها، وتعظم بيتها، هذا البيت الذي يزعم المرجفون اليوم أنه يصادم الحرية في نفس المرأة، وأن الحق سبحانه حينما قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾[2] إنما يأمرها بما لا يستطاع، وأنه يقبرها ويجور عليها ويهضمها حقها.

«إن حرية المرأة في بيتها، وميدان جهادها في بيتها، فهو سعادتها التي خرجت منها لتبحث عنها، المهم أن تعرف دورها، وتدرك مسؤوليتها، وأن تتعلم كيف تعمر أوقاتها كاشتغال بالطاعة، وإعانة للزوج، وتربية للناشئة، وإعداد للأبطال»[3]

ولله در القائلة:[4]

---

(١)- من مقال د. ليلى عطار صحيفة الجزيرة بتاريخ ١٤٣١/٣/٣هـ

(٢)- سورة الأحزاب - الآية ٣٣.

(٣)- جريدة الجزيرة ١٤٣١/٣/٣هـ عدد (١٣٦٥٦) مقال د. ليلى عطار.

(٤)- الشاعرة عائشة الحارثية.

وخير نســـاء العالمين هــي التي
تدير شؤون البيت أو فيه تعمــل
إذا بقيت في البيت فهي أميــرة
يوقرهـــا من حولهـــا ويبجـــل
وإسهامها للشعب أن قدمت له
رجالاً أُعدُّوا للبنـــاء وأُهِلّـــوا
رعتهم صغاراً فكانت أساسهــم
تلقـــن كلاً ما يقــول ويفعـــل

وفي محاضرته التي ألقاها عام ١٩٢٧م بجمعية الشبان المسلمين، تحدث الإمام «حسن البنا» رحمه الله عن دور الأم الصالحة في إعداد الرجال، فقال: «والأم إذا صلحت فانتظر من ابنها أن يكون رجلاً بكل معاني الرجولة، وأنت إذا استقرأت تاريخ العظماء، وجدت أن السر في عظمة الكثيرين منهم ما بثته فيهم الأم من المبادئ الصالحة القويمة بحكم البيان والتلقين، وما كان علي بن أبي طالب في حبه للحق وغيرته عليه، ومناصرته للرسول ﷺ ولا معاوية في حلمه ودهائه، ولا عبد الله بن الزبير في شجاعة نفسه، ولا الزبير نفسه في ذلك إلا سراً من أسرار فاطمة بنت أسد، وصفية بنت عبد المطلب، وأسماء بنت أبي

بكر، وهند بنت عتبة، ولئن كان الولد سر أبيه، فكل إناء ينضح بما فيه، وحريٌ بمن يسمع في مهده ولأول عهده بالحياة ترنيمة أمه:

ثكلت نفسي وثكلت بكري إن لم يسد فهراً وغير فهر

بالحسب العدل وبذل الوفـــر حتى يوارى في ضريح القبر

أن يكون سيداً تتفجر الحكمة من جنبيه، وتنطوي السيادة من برديه، كما كان عبد الله بن عباس بتأثير أمه أم الفضل بنت الحارس الهلالية، وحري بمن يطرق سمعه لأول مرة تلك الأغاني الخليعة والترنيمات الغثة التي يداعب بها أمهات هذا العصر أبناءهن أن ينشأ ماجناً خليعاً فاتر الهمة، ضعيف النفس، الأم أستاذ العالم، والمرأة التي تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها فلأجل أن نصلح المنزل يجب أن نصلح الأم التي هي روحه وقوامه.»

المؤامرة على المرأة

اتخذ أعداء الإسلام من المرأة محوراً من محاور العداء، وأحاطت بها مؤامراتهم وتدبيراتهم الشيطانية، ذلك لأنها النواة التي يخرج من بين ذراعيها جيل النصر المنشود، ذلك الجيل الذي يخشونه، ويحولون دون وجوده؛ فهي الأم التي بقدرتها أن تزرع البطولة والفداء واليقين والإصرار والتحدي في أبنائها، ومن هنا عمدوا -وبهمة شديدةٍ- إلى إفساد نواة التكوين والإعداد ليصبح المسلمون ولا رصيد لهم من الرجال والأبطال والقادة والعظماء.!

«إن مخططات الإستعمار والصهيونية الماسونية والشيوعية والمذاهب الإلحادية، تهدف إلى إفساد الأسرة المسلمة وانفصام عراها، وهذا لا يتم إلا بتمزيق القيم الأخلاقية، وإطلاق عنان الغرائز والشهوات وإشاعة الإنحلال والميوعة في المجتمع، فالمرأة

عند هؤلاء هي أول الأهداف في الدعوة الإباحية والميدان الماكر، فهي الإغواء العاطفي وذات الفاعلية الكبيرة والتأثير المباشر في هذا المجال»

ومما ينسب لكبير من كبراء الماسونية :«يجب علينا أن نكسب المرأة، ففي أي يوم مدت إلينا يدها فُزنا وتبدد جيش المنتصرين للدين»

ويقول أحد أقطاب المستعمرين: «كأس وغانية يفعلان في أمة محمد أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب الشهوات»، ومما قاله القس «زويمر» في أحد مؤتمرات المبشرين: «إنكم أعددتم نشئًا في ديار المسلمين، لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية».. وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراد له الإستعمار؛ لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنيا إلا في الشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات، كما جاء في بروتكولات حكماء صهيون ما يلي: «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا.. إن (فرويد) منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس ، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه

الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية؛ وعندئذٍ تنهار أخلاقه»[1]

وبدأت الدعوات الزائفة لتحرير المرأة والتي استغلوا فيها الوضع الجاهلي الذي كان يسود المجتمعات الإسلامية تجاه المرأة، فأثاروها قضيةً وافتعلوها معركةً ليست لتحرير المرأة؛ ولكنها معركة لتحطيم الإسلام.. «إن الذين استغلوا هذا الوضع ليطلقوا دعوتهم لم يكن همهم الحقيقي رفع الظلم عن المرأة، وإنما كان رائدهم الأول تحطيم الإسلام، وإخراج المرأة فتنة متبرجة في الطريق لإفساد المجتمع الإسلامي»[2]

ونجحوا في مخططهم، واستجابت المرأة لزورهم، خدعوها بدعوى التحرر والتمدن لتتخلى بعد ذلك عن دورها ومهمتها ومسئوليتها الكبرى في إعداد الجيل الذي تأمله الأمة، وراح المجتمع الإسلامي يفتقر إلى المربية الفاضلة، والأم الرسالية.

❁❁❁

(١)- إلى كل أبٍ غيور :لعبد الله ناصح علوان

(٢)- قضية تحرير المرأة : لمحمد قطب

أمومة تصنع الأبطال

يشيد الشاعر العظيم وهو يخاطب الأم ويلفت إلى دورها في صناعة الأبطال الذين حملوا أرواحهم على أكفهم فداء لهذا الدين فيقول:

خلفتِ جيلاً من الأبطال سيرتُهم

تضوَّع بين الورى روحًا وريحانـــا

كانت فتوحُهم برًّا ومرحمـــــــةً

كانت سياستُهم عدلاً وإحسانـــا

لم يعرفوا الديـــــن أورادًا ومسبحة

بل أشبعوا الدين محرابًا وميدانـــا

وهي إشارة ساطعة لدور المرأة الخطير حينما تكون أمًا؛ فإن مسؤوليتها أعظم لأنها تسعى بها لإحياء أمتها ونهوضها على العزة والشموخ، بما تربي من أبناء يكونون وقودًا لمستقبلها وانتصارها.

إن المسلمين ما سادوا الدنيا قديماً وعزت رايتهم على العالمين؛ إلا حينما كانت المرأة أمًّا تعرف واجبها ورسالتها، فلم تقصر أو تفرط، علمت أنها الداعم الأكبر لأمة قوية تزحف نحو العزة والكبرياء، وتدرك أنها مصنع الرجال وموئل الأبطال، تُربي الناشئة في أحضانها على معاني الإباء والشمم، وترضعهم معالم الرفعة والحرية.

وحينما كانت الأم بهذا الوعي في تاريخنا، كانت النتائج مبهرة؛ لقد ربت جيلاً من الأبطال، وخرج من رحمها أفذاذ عظام، وفرسان مغاوير، واستطاعت أن تمنح التاريخ قادة أقوياء أوفياء.

إن أمتنا اليوم لتستعيد ذكرى محمد الفاتح، وهارون الرشيد، وصلاح الدين، والظاهر بيبرس، وألب أرسلان، وخير الدين بربروس، وغيرهم وغيرهم من رموز طالما فاخرنا بانتسابنا لهم، بل لا نجد مشاعر الفخار ومعانيها إلا بحضورهم على ألسنتنا

واسترجاع أمجادهم من ذاكرتنا..

لقد أدرك الاستعمار قديما خطورة المرأة في تكوين المجتمع وتربية الجيل، فمنذ عشرات السنين، وحينما دخل الاستعمار الفرنسي أرض الجزائر، وجد مقاومة عنيفة من الشعب الجزائري، ونظروا يتأملون في دهشة وحيرة وتساءلوا ماذا نفعل؟ فقالوا: نستعين بعلماء الاجتماع في فرنسا ونسألهم ليفسروا لهم هذه الظاهرة العجيبة.!

وعلى الفور تم استدعاء (روجيه مونييه) عالم الاجتماع الشهير إلى الجزائر، وطلبوا منه تحليلاً دقيقًا للظاهرة، وأن يدلهم على حل مناسب، يستطيعون من خلاله قهر هذه المقاومة والقضاء عليها.

فغاب الرجل فترة متنقلاً بين شرائح المجتمع الجزائري، ثم عاد لهم بالنتيجة وقال: المرأة الجزائرية..! فقالوا له: سألناك عن طريقة تجدها للقضاء على المقاومة، ولم نسألك عن النساء.!

فقال لهم روجيه مونييه: المرأة الجزائرية هي السبب الرئيس في المقاومة التي تجدونها؛ فهي ترضع طفلها مع لبن ثديها حبَّ الإسلام، والتضحية من أجله، والجهاد في سبيل الله، فإذا أردتم

أن تقضوا على هؤلاء الناس، فعليكم إفساد هذه الأم، اجعلوها تفكر في أشياء أخرى، اخلقوا التناقض بينها وبين الرجل.

ولقد ظهر لهم كثير مما أرادوا، وصار من المتغربات اليوم من يتنصلن من العروبة والإسلام، ولا يجدن غضاضة في هدم القيم والفضائل، ولا أعرف كيف يكون مستقبل ذلك الغلام، الذي تحكي له أمه هذا القصَصَ، فتلتهم مسامعه سيرة القادة الفاتحين والأبطال العظام، والفرسان الأماجد؟!

لا شك أن هذا القصَصَ تنفعل أطرافه في نفس الغلام، وتنطبع في ذاكرته مُلحة عليه أن يحاكيها ويعيدها للواقع، ماثلة كائنة مبهرة.

أرأيت أيها القارئ أهمية الأم وجلال مهمتها؟ تلك المرأة التي نظنها ضعيفة منكسرة، تستطيع أن تصنع من أطفالها جبالًا شماء وقادة عظماء يعزون أمتهم ويعلون رايتها ويسعدون شعوبهم ويحيون أوطانهم، فماذا يضيرنا اليوم لو دفعنا بأمثالها في أمتنا الجريحة حتى نداوي سُقمها، ونكسر ذلها، ونمحو عللها وآلامها؟!

ألا إن رايتنا لن يرفعها الفرسان الأقوياء، بقدر ما ترفعها الأم الفاضلة! ولله در القائل:

أختاه من للنشء يثقل فكرهم ... ويريهم السنن القويم سواك؟
يا بنت فاتح لقينهم في الصبا ... تاريخ مجـــد كان للأتـــراك
شهدت به الدنيا وذل لسيفه ... كل الملـــوك وكان فيه علاك
أضحى به صرح الشريعة شامخا ... وهوت لديه معاقل الإشـراك
أختاه إن الدرب صعب مجهد ... يحتاج زادا ، والتقى هى ذاك

الأم القدوة

يخرج الطفل إلى الدنيا فلا يجد أحدًا أقرب إليه من أمه؛ وإذا كان الولد يتأثر بأبيه، فتأثره بأمه أكبر وأعمق وأسرع، لأنها القريبة منه والملازمة له والطريق الذي يعبر إلى الدنيا ويتعامل معها من خلاله، فمنها يكتسب أخلاقه وسماته وتكوينه النفسي وقيمه وميوله واختياراته، يكون الطفل الذي ينشأ في حضن أمه كما قيل: كالمرآة العاكسة لكل ما تحمله الأم من خصال حميدة حميدة أو ذميمة و من أخلاق فاضلة أو مذمومة، ولعل (الرصافي) كان أقوى تعبيرًا حينما صاغ في شعره ذلك المعنى فقال:

هيَ الأخلاقُ تنبُتُ كالنَّباتِ إذا سُقِيَتْ بماءِ المَكْرُماتِ تقومُ

إذا تعهّدهـــا المُرَبّي على ساقِ الفضيلةِ مثْمِراتِ

وتسمو للمكارم باتِّساقٍ كما اتّسقتْ أنابيبُ القنـــاةِ

وتُنعش مِن صميمِ المَجدِ رُوحاً بأزهارٍ لها مُتَضوِّعـاتِ
ولمْ أرَ للخلائقِ مِن محَلٍّ يهذّبها كحِضن الأمهـاتِ
فحِضنُ الأمِّ مدْرسةٌ تسامتْ بتربيةِ البنينَ أوِ البنـاتِ

ويقول عن المرأة القدوة:

لأخلاقِ الصبيِّ بكِ انعكاسٌ كما انعكسَ الخَيالُ على المِرَآةِ
وما ضَرَبانُ قلبكِ غيرُ درسٍ لتَلقِينِ الخِصالِ الفاضلـاتِ(١)

وهنا يشب الطفل؛ فإذا رأى أُمه ذات همة صار ذا همة، وإن رآها هاوية سقط وانحدر، وإن رآها تقبل على العلم والعبادة صار مقبلا على العلم والعبادة، وإن رآها محبة للكتب مقبلة على الثقافة والقراءة والاطلاع، صار مثلها تمامًا يهوى الكتب ويحب القراءة والثقافة والاطلاع، وإن رآها تحب العمل والجد والنشاط صار مثلها مجدا نشيطا منجزا للعمل، وإن رآها نظيفة عفية أنيقة صار مثلها نظيفًا رشيقًا أنيقًا، كل شيء يرى أمه عليه يكون مثله ويصطبغ بصبغته ويتلون بلونه؛ لأنها هي المحضن الأول والطريق الذي يتعلم منه معنى الحياة ويتقدم من خلاله إليها، ومن هنا كانت رسالة الأم هامة وخطيرة لأنها بما لديها

(١)- ديوان الرصافي / معروف الرصافي: ٣٤٩/٢.

من القدرة على تشكيل الأبناء والأجيال على الخلق والفضيلة، صارت صمام الأمان الذي يضمن سلامة المجتمع، وصلابة الوطن، ونهوض الأمة في وجه الأخطار والمحن، كل هذا مرهون بالأم القدوة التي تعي ذلك وتدرك أهدافها وغايتها ورسالتها.

يقول الشاعر[1]:

رَوِّضِيْ البَنينَ على العُلا، شتّانَ ما عِزُّ المُلوكِ وذلَّةُ المملوكِ

فإذا طوَيتِ الدَّهرَ في تَقويمِهِمْ كَرُمَ البنونَ؛ فلَـمْ يهُنْ أهْلُوكِ[2]

كما يسرع الشاعر القروي ليلقي بمسؤولية النصر على عاتق الأم ويجعل منها أهم ورقة وأثمن مفاتيح المعركة مع أعداء الأمة حينما قال:

فَرَبِّيَنَ البَنينَ لِكَي يشبُّوا لتحريرِ الشَّآمِ – غداً – جُنودا

فإن شِئتُنَّ لَمْ نَبْرَحْ عَبيداً وإن شئتُنَّ حرَّرنا العَبِيدا[3]

يجب أن تتنبه الأم أنها تربي ولدها دون أن تشعر، فكل حركاتها وسكناتها ومواقفها تضع على ذاكرته وقلبه وسلوكه علامة لا

(١)- شفيق جبري

(٢)- نَوحُ العندليب / شفيق جبري: ص ١٠٩.

(٣)- ديوان القَرَوي/ رشيد سليم الخوري: ص ٥٦٢.

تفارقه على مدار حياته بسهولة، لأنه يتشكل ويتلون حسب الطريقة والأسلوب الذي نُعامله به، كما أن هذا السلوك هو الذي ينعكس على طباعه وأخلاقه التي يتعامل بها مع المجتمع، وكما قيل :إن الطفل مثل الرادار الذي يلتقط كل ما يدور حوله .! فإن كانت الأم صادقة أمينة خلوقة كريمة شجاعة عفيفة، نشأ مماثلا لها في هذه الأخلاق الطيبة الكريمة، وإذا كانت كاذبةً جبانةً، بخيلة ساقطة غير خلوقة، نشأ على الكذب والغدر والخيانة والتحلل والجبن.

وما أروع هذه الأم التي يشب أبناؤها وقد غرست فيهم حب التدين والصلاح والإيمان بالله والإقبال عليه، وعلمتهم أن يقبلوا على العلم والعبادة، تدفعهم إلى ذلك دفعا وتحضهم عليه حضا، ليخرج الولد أو الفتاة وقد صار كل منهما لبنة في كيان الإنسانية الرشيدة يحقق رجاءها وينفذ رسالتها في خلق حياة حرة كريمة يسعد بها البشر ويأمن فيها الإنسان، لأنها حياة متصلة بالله وأوجدها قلب عارف بالله وكأني بلسان حال هذا الطفل وهو يخاطب أمه فيقول:

أعيدي همسَكِ الحاني بأوزانٍ .. وألحانِ
فسمعُ الكونِ قد أصغى وإني السامع الثّاني:

«حبيبَ القلبِ يا ولدي ... ألا يا فلْذةَ الكبدِ
لغَيرِ الله لا تسجُـدْ ... ولا تعبدْ سِوَى الأحدِ
حبيبَ القلب .. ياعمري ... ألا يا بسمة الطُّهْرِ
تتبَّعْ سُنّةَ الها دي ... رسولِ الحقِّ والخيرِ
حبيبَ القلب .. يا قلبي ... ألا يا نِعمةَ الربِّ
أنا أمَلِيْ بأنْ تَحْيا ... إلى الإيمانِ و الحـبِّ

لماذا الآن تحديداً؟

إن خالدًا تولى قيادة الجيش في مؤتة بعد استشهاد القادة البواسل، وتكسرت في يديه في ذلك اليوم الرهيب تسعة أسياف ولم يصمد فيها سوى صفيحة يمانية، وجاءت خطته العبقرية للانسحاب الذي لم يكن جبناً أو فراراً من الزحف، وإنما كان فرصة لإعداد المسلمين لجولة أخرى مع الروم.

لقد كانت مؤتة ملحمة رهيبة، لم يعرف التاريخ مثيلها في شجاعة أفرادها وإقدامهم، والقارئ لها يرى أن رجالها مغامرون متهورون، يقبلون على المحال دون النظر للعواقب، كيف لثلاثة آلاف أن يواجهوا مائتي ألف؟ إن هناك سرًا دفع إلى هذا الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت.. «وهذه الفروسية لم يحتكرها الرجال فقط، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت كلها أمة كفاح غال عزيز، وحسبك أن جيش مؤتة

لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: يافرار، فررتم في سبيل الله؟..

إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فرارًا يُقابل بحثو التراب على وجوههم، أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟! أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟ من آباؤهم؟ من أمهاتهم؟ كيف كان الآباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟ إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس.»[1]

إن كثيرًا من أمهات اليوم يحصرن غايتهن في أبنائهن في التغذية والترفيه، واللباس والتعليم المدرسي، وترى التربية في تسمين الأولاد وتزيينهم وتجميلهم وتمشيطهم، وتكون بهذا أمًا مثالية! وأكثرهن لا يلتفتن إلى غرس القيم في نفوس الأطفال وتعويدهن على فضائل الأعمال ، وإلهامهم صفات الرجال، فيشب الغلام وقد غلب عليه التفريط في كل شيء، في العبادات والأخلاق والقيم والآداب؛ ويصير لا همَّ له إلا إشباع شهواته، وتلبية رغباته، ولا يتقن من مهارات الحياة إلا متابعة القنوات، والتسلي بالإلكترونيات، فهل نتوقع من هذا الجيل قيادة أو ريادة أو

(١)- فقه السيرة الشيخ الغزالي

نهوضًا ونصرًا؟!

لابد من العمل على إيجاد مدرسة أو جامعة أو مراكز تُعنى بتخريج الأمهات وإعدادهن إعدادًا قويًا متكاملا لكل عناصر وسمات الشخصية السوية التي تؤهلها لدورها ووظيفتها وتعينها على أداء رسالتها بكفاءة واقتدار، لابد من العناية بها كما نعنى بتخريج المدرسة والطبيبة والمهندسة ؛ لأنها تقوم بأعظم رسالة في حياة الوطن والمجتمع والأمة وهي تربية النشء الذي يقوم عليه كل شيء، ويتحقق به كل أمل، وينتصب على قواعده كل طموح، وحينما تتقن الأم فنون الأمومة وتكون مسلحة في قيامها بهذه الرسالة العظيمة، بالعلم والثقافة والوعي والفهم الناضج الأصيل، فقد وضعنا أيادينا على الطريق السليم والمباشر للنهوض العظيم والصحوة المنشودة، لابد أن يكثف المجتمع جهوده لإيجاد هذه النوعية من الأم التي يستقر في وعيها أنها البطل الحقيقي الذي سينقذ أمته من الضعف والتردي والتراجع..!

الأم مدرسة العظماء

لقد كرمها الإسلام بنتًا وأختا وزوجة وأمًا، وعلى هذا التكريم كانت مسؤوليتها ودورها المنوط بها، والذي قامت به خير قيام فكان لها أثرها النافذ في تاريخ الإسلام، وفعلها المؤثر في بناء حضارته، حينما خرّجت من بين يديها الأبطال والعظماء الذين علموا الدنيا وسادوا الأمم، وربوا الشعوب بالأخلاق والقيم، وحملوا أعظم رسالة في حياة الإنسان. وهنا يقف أحد الدعاة ليصور بقلمه تلك المدرسة التي تخرج منها أولائك الأبطال الذين حملوا الرسالة وبذلوا في سبيلها النفس والنفيس ، فيقول: «ففي قرن وبضع قرن، وثب المسلمون وثبةً ملأوا بها الأرض قوة وبأساً، وحكمةً وعلمًا ونورًا وهداية، وهاضوا الممالك، وركزوا ألويتهم في قلب آسيا، وهامات أفريقيا، وأطراف أوروبا، وتركوا دينهم وشريعتهم ولغتهم، وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب، وتتقلب بها الألسنة، وتحقق فيهم النموذج الفريد، والمثل الأعلى

للبشرية، وأنهم خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانوا طرائق قدداً، لا نظام ولا قوام ولا علم ولا شريعة.

ففي أي المدارس درجوا، ومن أي المعاهد تخرجوا؟ لقد قطع المسلمون تلك المرحلة التي سهم لها الدهر، ووجم لروعتها التاريخ، ولم يقيموا معهدًا ولم ينشئوا جامعة، بل لقد كانت خيامهم ودورهم وقصورهم معاهد ومدارس، وما شئت من مغارس حكمة ومغاوص آداب، ولي أمرها أمهات صدق أقامهن الله على نشئه، واستخلفهن على صنائعه، وَائْتَمَنَهُنَّ على دعاة حقه ورعاة خلقه، فكن أقوم خلفائه بواجبه وأثبتهن على عهده، وأنهضهن بالفادح الشديد من أمره.. لقد كان الله سبحانه وتعالى أبر بهؤلاء القوم من أن يخرجهم مخرجًا سيئًا أو ينبتهم منبتًا فاسدًا أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة، ثم يسومهم أشرف مطالب الحياة ويوردهم أسمى مقاصدها؛ لأن الأم من الأمة بمثابة القلب من الجسد، فهي غذاء أرواحهم ومران أعوادهم ومفيض مداركهم ومبعث عواطفهم، فإن وهنت كان كل أولائك ضعيفًا، لقد كانت نهضة المسلمين غريبة فريدة لأن المرأة كذلك كانت غريبة فريدة.»[1]

(١) عودة الحجاب - للمقدم

هذا تمامًا ما حدث لسيد قطب رحمه ﷲ، اسمع إليه وهو يتحدث عن عظمة أمه في رثائه لها، فيقول: «لقد كنتِ تصورينني لنفسي كأنما أنا نسيج فريد منذ ما كنت في المهد صبيًّا، وكنت تحدثينني عن آمالك التي شهد مولدها مولدي، فيتسرب في خاطري أنني عظيم، وأنني مطالب بتكاليف هذه العظمة»

فهل ترى أيها القارىء الكريم أن سيد رحمه ﷲ استطاع أن يحقق في نفسه وذاته رغبة أمه وطموحها فيه؟ نعم، لقد صار الأديب العبقري، والمفكر اللوزعي، والشهيد الصُلب الذي واجه غدر الطغاة وجور الظلمة الآثمين، واستطاع بكل تأكيد أن يعيد للواقع صورة العظماء الخالدين من شهداء الحق والحقيقة، وتحولت كلماته في وجه الجبابرة مضرب الأمثال وأغنية الأجيال حينما قال: «إن أصبع السبابة الذي يشهد بالوحدانية لله في الصلاة، لا يكتب كلمة اعتذار لطاغية»، ولعلنا نتساءل: ما الفرق بين أن نسمع مثل هذه القصص من فم الأم، وبين أن نسمعها من عالم مؤثر أو مصلح مشهور؟ إنها قصص في ذاتها تشحذ الهمم، وتنمي الطموح، ولعلي لا أجد إجابة غير ما حكاه الولي المناضل (بديع الزمان سعيد النورسي) مجدد الإسلام في بلاد الأناضول حينما قال: إن والدته لم تكن ترضعه وإخوته

إلا على وضوء، ثم يقول: «أقسم بالله إن أرسخ درس أخذتُه، إنما هو تلقينات أمي رحمها الله ودروسها المعنوية، حتى استقرتْ في أعماق فطرتي، وأصبحتْ كالبذور في جسدي في غضون عمري الذي يناهز الثمانين، رغم أني قد أخذت دروسًا من ثمانين ألف شخص؛ بل أرى يقينًا أن سائر الدروس إنما تبنى على تلك البذور».

وفى الجاهلية كان حاتم الطائي، والذي يضرب به المثل في الكرم والجود؛ إنه لم يكتسب صفاته هذه من ذات نفسه، أو من عوامل الطبيعة حوله، وإنما كانت ثمرة أم جوادة كريمة، لقد جاعت مرة فأقسمت أن لا ترى جائعًا إلا أعطته ما تملك، وكان من حقها أن تفعل ذلك. لقد قالت:

لعمري لقد ما عضني الجوع عضة

فآليت أن لا أمنع الدهر جائعـًا

وما إن ترون اليوم إلا طبيعـــة!

فكيف بتركي يابن أمي الطبائعـا

وإذا حاتم قد تأثر بأمه في الزمن القديم فإن أمًا خرَّجت مثل

حاتم في العصر الحديث وكانت تمتلك ما تمتلك أم حاتم من البر والعطف والاحسان الذي دربت عليه ولدها، إنها أم الامام محمد عبده (جنينة بنت عثمان)، التي تحدث عنها وذكرها ونوه بتأثره بها، فكان آية في العطف على الناس، وتقديم الخير لهم، وهو الذي بما قيل قديمًا:

تعود بسط الكف حتى لو أنه دعاه لقبض لم تطعه أنامله

إذ لم يكن في كفه غير روحــه لجاد بها فليتق الله سائلــه

وإذا أردت أن تعرف دوره رحمه اللَّهُ في ميدان البر والاحسان فلتراجع ما كتبه عنه الأستاذ العقاد في كتابه الشهير، لترى فصولاً من البر والإحسان غير مسبوقة، وها هو يقول عنها: إنها كانت ترحم المساكين، وتعطف على الضعفاء، وتعد ذلك مجدًا وطاعة لله وحمدًا، ثم يتحدث عن منزلتها بين النساء، وكيف كانت عظيمة قوية الشخصية: كانت منزلتها بين نساء القرية لا تقل عن منزلة أبي بين رجالها.

وهذا عمر بن عبد العزيز الذي سارت بخبره الركبان، فكان الخليفة العادل، وخامس الخلفاء الراشدين، إن أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، حفيدة عمر بن الخطاب،

التي زرعت فيه صفات جده وخلائقه، من الزهد والخشية، فكان مضرب الأمثال، وأغنية الأجيال، في العدل والانصاف والخشية والخوف من الله تعالى.

❊❊❊

الأم أمل الأوطان

لا يمكن أبداً للأوطان أن تنال عزتها، وللأمة أن تعود لسالفها بعيدًا عن دور الأم المسلمة التي تعنى بالتربية والتقويم والإرشاد، لهذه الأجيال التي تحمل راية الإصلاح الإسلامي، بل لا أبالغ إن قلت: إن عليها نصف الجهاد وشطر المهمة، ومن هنا تعود الأم المسلمة لما كانت عليه سلفًا من إعداد أجيال البطولة، وأبطال النصر المنشود.

يقول الشاعر:

في كفّكِ النَّشْءُ الذين بمثلِهمْ تصفوْ الحياةُ وتُحفظ الآثارُ

هُزّي لهمْ جِذعَ البطولةِ، ربّما أدمَى وجوهَ الظالمينَ صِغارُ

غذّيْ صِغارَكِ بالعقيدةِ، إنّها زادٌ بهِ يتزوّدُ الأبرارُ

ويقول غيره:

ربّيْ وَليدَكِ وَفْقَ الدّينِ، ربّيهِ فالدّينُ مِن سَفَهِ الإلحادِ يَحميهِ

فلقِّني طفلَكِ الإسلامَ، فهُوَ لهُ كالمَنهَلِ العَذْبِ ماينفَكُّ يرويهِ
وسلِّحيهِ بما في الدِّيـــنِ مِن أدبٍ ومِن محجَّتِهِ البيضـــاءِ فاسقيهِ
وعلِّميهِ التُّقى، إنَّ التُّقى سَنَدٌ يَقِيهِ مِن كلِّ أمرٍ سوفَ يؤذيهِ
ونشِّئيهِ على هَدْيِ الكِتابِ، ومِن آياتِهِ الغُرِّ – يا أُختاهُ – غَذِّيهِ

ويحدثنا الدكتور السباعي في سيرته فيقول : «لجهاد المرأة في سبيل الإسلام صفحات بيضاء مشرقة، تؤكد لنا اليوم أن حركة الإصلاح الإسلامي ستظل وئيدة الخطى قليلة الأثر في المجتمع حتى تشترك فيها المرأة، فتنشيء جيلاً من الفتيات على الإيمان والخلق والعفة والطهارة، هؤلاء أقدر على نشر هذه القيم التي يحتاج إليها مجتمعنا اليوم في أوساط النساء من الرجال، عدا أنهن سيكن زوجات وأمهات، وأن الفضل الكبير في تربية صغار الصحابة ثم التابعين من بعدهم، يعود إلى نساء الإسلام اللاتي أنشأن هذه الأجيال على أخلاق الإسلام وآدابه، وحب الإسلام ورسوله، فكانت أكرم الأجيال التي عرفها التاريخ في علو الهمة واستقامة السيرة وصلاح الدين والدنيا، واليوم نحن في حاجة إلى أن تحمل المرأة المسلمة عبء الدعوة إلى الله من جديد، لتدعو إلى الله في أوساط الفتيات والزوجات والأمهات وتنشئ في أطفالها حب الله ورسوله والاستمساك بالإسلام

وتعاليمه والعمل لخير المجتمع وصلاحه»[1]

وهذا يوجب علينا العناية بالبنت في مهدها بتعليمها وتهذيبها، وتعريفها بدورها المنوط بها، ليخرج الجيل عارفًا بغايته، فاهمًا لرسالته.

يقول شوقي :

وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليـــــلا

إن اليتيم هو الذي تلقى لـــه ... أمّاً تخلت أو أباً مشغـــولا

أما الذين يحقرون المرأة ويهينونها، ولا يعرفون قدرها، إنما يختصرون على الأعداء طريقهم إلى القضاء علينا، بل هم بذلك يقضون على الأم التي تبنى الرجال، وتدفع بهم إلى معارك العزة، وقلوبهم تذخر بالشجاعة والإقدام.

لابد إذًا أن ترتقي الفتاة في التعليم والتهذيب والإدراك والثقافة لكي تشكل أبناءها على علمٍ ودراية، وقد جعل الإمام البنا رحمه الله من أهم الوسائل لإصلاح المنزل ، ترقية تعليم المرأة، وتزويدها في المدارس بالقدر الوافر من الدين والخلق، وإفساح المجال في مناهج دراسة البنات للبحوث البيتية، وتراجم فضليات النساء

(١)- السيرة النبوية دروس وعبر للشيخ الدكتور مصطفى السباعي

اللاتي كن مضرب المثل في الخلق الفاضل في زمنهن كنسيبة بنت كعب، وأسماء بنت أبي بكر، وصفية بنت عبد المطلب، وخولة بنت الأزور، وسكينة بنت الحسين، وغيرهن كثير.

إن البنت تدرس في مدارسنا الموسيقى واللغة الأجنبية والهندسة والقانون، ثم هي لا تعلم شيئًا عن تربية الطفل، ولا تدبير الصحة، ولا علم النفس، ولا الدين والخلق ولا تدبير المنزل، فأي منهج هذا؟ وإلى أي غاية يوصل؟

من لي بتربية البنات فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق

رسالة الأم عظيمة، ومكانتها كبيرة، وكم يكون أجدى وأنفع لمستقبل أمتنا لو أننا أكدنا مرارًا على مكانة الأمومة ودور الأم، وغرسنا في عقول الفتيات كم هن عظيمات بما ينتظرهن في المستقبل من دور كبير فتندفع كل واحدة منهن وفي عزمها أن توجد عظيمًا من العظماء. نريد التأكيد على هذا الدور في مدارسنا ومجالسنا ومحافلنا بل نهيب بالشعراء والأدباء والقصاص أن يركزوا في مروياتهم على دور الأمومة العظيمة في تكوين الأجيال، وقد أعجبني أحدهم حينما وصف دور الأم في حياة بطل روايته فقال:"إنه يشعر أن أمه هي كل شيء في حياته، إنها الواحة الخضراء التي يلجأ إليها من قيظ الأحزان ليجد عندها

الراحة والسلوى والعطف والاهتمام، إنها المعلم الملهم الذي يتلقى عنه مبادئ الحكمة ودروس الحياة. لقد لعبت أمه دورا كبيرًا في تكوين شخصيته، فقد ربته على الأخلاق الفاضلة، وغرست في نفسه حب العمل والصبر على التعب، وعودته على احترام الوقت والنظام، ونأت به عن الدلال والميوعة والانحلال، فنشأ فتى رشيدًا قوي النفس والإرادة، عليَّ الهمة، طاهر الوجدان، يسعى نحو رجولة مبكرة تبشر بالكثير. لقد كانت أمه دائمًا وراء تفوقه ونجاحه، تحفه بالدعوات الضارعة، والكلمات المشجعة التي كانت تدفعه قدمًا إلى الأمام"[1]

❁❁❁

(١)- من رواية "دموع على سفوح المجد" - د. عماد زكي.

الأم منبع الإصلاح

يؤكد كثيرٌ من المربين أن مسؤولية الأم ومنزلتها لا تقل عن مسؤولية الوزير والمدير العام، وأن إدارة الأولاد ومسؤوليتهم لا تقل عن المسؤولية الإدارية، وتمهيدًا لهذا فإن إعداد الفتاة لابد أن يلقى عناية خاصة حتى تستطيع أن تحمل مسؤوليتها في تربية الأبناء، ويجب إشعارها بأن لها دورًا فخما ينتظرها في المستقبل تقوم به الأمة وينهض به المجتمع.

إن أي أمة تريد الإصلاح لن تستطيع تحقيق شيء من مراميه إلا إذا كانت أول خطواتها نحو إصلاح الأمهات وإعدادهن حتى يدركن كيف يربين الأطفال، كثيرون هم أولئك الذين يتحدثون عن أمهاتهم ويروون ما وجدن في أحضانهن من حنان فياض ومشاعر دفاقة، وحب غامر وعطف لا حدود له، كثيرون هم أولئك الذين يتحدثون عن أمهاتهم ويذكرون سهرهن المتواصل وكفاحهن الدؤوب وتضحياتهن السامية حتى يوفرن لهم حياة

هانئة ومستقبلاً سعيدًا، كثيرة هي الدموع التي يزرفها من يتذكرون أمهاتهم لأنهم لم يجدوا في الحياة حولهم من يحنو عليهم ويحيطهم بالرعاية والحنان كما كانت تفعل أمهاتهم، هناك من يشعر بفقد أمه أنه قد فقد المعني الحقيقي لكلمة الحب، وأن قلبه الدفين في صدره صار مجرد قطعة من اللحم ما عادت تشعر كما كانت تشعر في زمن أمه بصدق الحب، وطهر المودة؛ وإخلاص الود.

لكنك وفي المقابل تجد القليلين فقط من يتحدثون عما غرسته أمهاتهم في نفوسهم من طباع الخير وخصال الإحسان ونوازع الفضيلة وبذور النُبل ومنابت المروءة، قليلون هم من يتحدثون عن أمهاتهم وكيف صيرت أحدهم بطلاً مغوارًا أو فارسًا شهمًا أو رجلاً عفيفاً، من السهل جدًا أن تجد من يقول أحبتني أمي، لكنك من النادر أن تجد من يقول علمتني أمي، إن الأم هي أول ما يعرف الطفل في هذا العالم، هي البوابة التي يدخل من خلالها إلى هذه الدنيا، يأخذ منها كل الطباع، ويرث عنها كل الغرائز، ومن هنا كانت كل خطوة، وكل حركة بل وهمسة محسوبة عليها، لأن لها أثرها في وليدها الذي يراقبها ويقلدها ويحاكي تصرفاتها، ولعل رسولنا العظيم ﷺ قد لفت نظر المرأة لشيء من هذا؛ فعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه أنه قال: «دعتني أمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ : «وما أردت أن تعطيه؟»،

قالت:أعطيه تمرًا!، فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كُتبت عليك كذبة.» وكما قيل: انحراف الأبناء في الكبر إنما يعود إلى الصغر. فنحن المسؤولون عن انحراف أبنائنا وبناتنا إذا أصررنا على انتهاج المعوجة في تربيتهم، نحن المسؤولون عن كذبهم في المجتمع إذا شجعناهم على الكذب في طفولتهم أو قسونا عليهم في العقوبة عليه حتى جعلناهم لا يخجلون منه، ونحن المسؤولون عن سرقاتهم إذا نحن ابتسمنا لسرقاتهم في طفولتهم، أو عاقبناهم بالعقوبة البالغة التي لا يطيقونها فندفعهم إلى التمرد والشقاوة دفعًا سريعًا.

ويروي الدكتور«السباعي» رحمه الله حادثة حصلت في إحدى المحاكم حيث حوكم سارق بعقوبة قطع يده: «فلما جاء وقت التنفيذ قال لهم بأعلى صوته: قبل أن تقطعوا يدي اقطعوا لسان أمي، فقد سرقت أول مرة في حياتي بيضة من جيراننا ولم تطلب إلى إرجاعها إلى الجيران، بل زغردت وقالت: الحمد لله لقد أصبح ابني رجلا، فلولا لسان أمي الذي زغرد للجريمة لما كنت في المجتمع سارقا»[1]

❁❁❁

(١)- السيرة للسباعي.

الأم في حياة العلماء والمفكرين

باعث سريرها لتعلم ولدها

يعتبر المفكر الجزائري الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله من أهم المفكرين الذين اهتموا بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية انطلاقًا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة، فقد كانت جهوده في بناء الفكر الإسلامي الحديث ودراسة المشكلات الحضارية عمومًا متميزة.

ينتمي المفكر الجزائري مالك بن نبي لأسرة فقيرة تتكون من الجدين و الأبوين و الأخوة، ازداد فقر الأسرة بعدما هاجر الجد الذي يعيلها إلى طرابلس بسبب القمع الاستعماري، وفي نشأة مالك وحياته، تأثر بأمه التي كان لها أكبر الفضل فيما وصل إليه، فرغم معاناة الأسرة إلا أنها حرصت على تعليمه، كانت تعمل بالخياطة وتجهد نفسها لتسد حاجة البيت، ولاحظ أنها

كانت تمسك بكيس النقود الذي كان فارغًا دائمًا، ورغم ذلك فإنها كانت حريصة على تعليم ابنها حتى إنها اضطرت أن تدفع إلى معلمه سريرها الذي تنام عليه بدلا من المال. ولشدة العوز والحاجة تضطر أم مالك في بعض الأحيان إلى بيع أواني البيت لتشتري الطعام لأبنائها بسبب عدم كفاية مدخولها من خياطة الملابس.

لقد اضطر جده للهجرة من المدينة التي ضاق بها لكن أباه رفض ذلك وبقي بها لأن أم مالك كانت تتمسك بالبقاء قريبة من أهلها الذين استقروا بـ (تبسة) من نصف قرن، وبقي الوالد فقيرًا دون مورد يعيش منه أو عمل يقيه العوز.. ويصف مالك تلك الفترة فيقول: (إنها كانت فترة شديدة العسر في حياة عائلتي وكان كثيراً ما يأوي إلى جدته لأمه ويستمع إليها فيما ترويه من أقاصيص وحكايات كان محورها يقوم على العمل الصالح وما يليه من ثواب، وكانت هذه الأقاصيص تعمل على تكوين مالك دون أن يدري فيقول: «منها عرفت الإحسان في مرتبة عليا من الخلق الإسلامي، وإحدى حكاياتها عن الإحسان جعلتني أنا ابن السادسة أو السابعة من عمري أقوم بعمل ربما كان على ما أعتقد أسمى ما قمت به في حياتي، ففي العائلة الفقيرة لابد

أن يجوع الصغار متى فقد الأب عمله، غير أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارستها للخياطة، وبالتالي فهي التي كانت تمسك بكيس النقود الذي كان دائمًا فارغًا، ولا أزال أذكر كيف أنها اضطرت ذات يوم أن تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسي، بدل المال سريرها الخاص، وأذكر أنه كان مصنوعًا من عدة ألواح من الخشب رفعت على صقالتين، وكان هذا يسمى في الجزائر آنذاك (السدة)، وكانت تعرف أن ما يحصل عليه أطفالها من غذاء غير كاف، فكانت تسد هذا النقص بعمل إضافي أيام الجمع، كان هذا العمل الإضافي يعطينا أنا وشقيقي يوم الجمعة قطعة من الرفيس وهي حلوى تبسية تُصنع من الطحين والسكر والتمر والزيت.

وفي ظهيرة يوم الجمعة أخذت نصيبي من الرفيس وأخذت أقضمه بنهم ولذة، وفجأة سمعت بباب الدار سائلاً ينادي: أعطوني من مال الله، ولم أكن عندها أكلت من فطيرتي أكثر من النصف، ومع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحسان وثوابه.»

ويكبر مالك ويرحل إلى فرنسا ويصير من المفكرين الكبار ويتزوج ويختفي بزوجته، لكن أمه ساهمت في تشكيل وجدانه، وساندته

بحبها العظيم في كفاحه، ولم تفقد إيمانها به لحظة ورغم أنها غادرت الحياة وهو لم يضع أقدامه بعد على أول طريق النجاح!

وبعد وفاتها لاحظت زوجته عليه أنه قد ظل لعدة سنوات بعدها يبكي خلال استغراقه في النوم، ويستيقظ في الصباح فيجد وسادته مبللة بقطرات من الماء دون أن يعرف سبباً لذلك، حتى فسرته له زوجه بأنه حبه لأمه ووفائه لها.!

ترملت من أجل ولدها

وهذه أم أحمد بن حنبل رضي الله عنه، يموت أبوه وهو صغير ويتركها شابة تؤثر أن تبقى أرملة وهي دون الثلاثين لتغمر حياة ولدها بالعطف والحنان والرعاية اللازمة، فتربيه على التدين وحب الله ورسوله، فحفظته القرآن وهو ابن عشر سنين.. يقول عنها ولدها: حفظتني القرآن وعمري عشر سنوات وكانت توقظني قبل صلاة الفجر بوقت ليس بالقصير، وتدفئ لي الماء لأن الجو كان باردًا في بغداد وتلبسني اللباس، ثم نصلى أنا وهى من الليل ما شئنا، ثم ننطلق إلى المسجد وهى مختمرة، لأن الطريق كان موحشاً مظلماً، هكذا كانت ترافقه للمسجد وعمره عشر سنوات، وتبقى معه إلى منتصف النهار، لتعلمه ليكون تقيا صالحاً، ثم يقول: فلما بلغت السادسة عشرة قالت لي: يا بني

سافر في طلب الحديث، فإن السفر في طلب الحديث هجرة في سبيل ﷲ، وأعدت له متاع السفر ثم قالت: إن ﷲ إذا استودع شيئاً حفظه فاستودع ﷲ الذي لا تضيع ودائعه، وذهب أحمد للمدينة ومكة وصنعاء ليعود بعدها الإمام أحمد بن حنبل الذي ملأ آفاق الأرض علمًا وفضلاً، ببركة هذه الأم التي يذكرها التاريخ بعد أكثر من ألف ومائتي عام، إنها صفية بنت ميمونة بنت عبد ﷲ بن شيبان.

ويقف أمامنا مطرف بن عبدالله فيقول عن دور أمه في تشجيعه على طلب العلم: قلت لأمي أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعال فالبس ثياب العلم، فألبستني مسمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن، وكانت تقول: اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه.

أما الجاحظ فقد عاش يتيمًا في الصغر، وترعرع في كنف والدته الفقيرة، التي اهتمت بتعليمه القراءة والكتابة، وكان كل يوم بعد أن ينتهي من الدراسة يذهب مع والدته إلى السوق فيبيع الخبز والسمك ليساعدها في كسب قوتها وقوته، وبالرغم من ذلك كان مواظبًا على حضور حلقات البحث العلمي التي تقام في المساجد، وذات يوم توقف عن البيع بسبب حبه الشديد لحضور

حلقة البحث العلمي، فكان يحضر معه إلى البيت كراسات الدراسة بدلًا من النقود، ولما طلب من والدته الطعام، قدمت له طبقًا مملوءًا بالكراسات وقالت: خذ هذا طعامك اليوم.

رسمت طريق ولدها

وهذه أم أخرى قد استطاعت بتوجيهها وإرشادها الذي ينبع من تدينها وخلقها أن تُرشد ولدها لمستقبله الذي ينتظره ليصير عبقريًا من عباقرة المسلمين

يحكى أن الإمام مالك قد رأى لنفسه رأيًا في مستهل حياته، لو أنه قام بتنفيذه لحرم العلم والدين شيخًا من شيوخه، وإمامًا من أئمته، ذلك أنه قد راق له في باكر صباه أن يشتغل بالغناء، ولعله قد أنس في نفسه صوتًا رخيمًا، وأداءً جذابًا، ولكن أمه كانت سيدة فاضلة سارعت إلى ردعه، موهمة إياه أنه قبيح المنظر والناس لا يقبلون سماع المغنى القبيح إذا لم يكن جميل المحيا، وضيىء القسمات، ونصحته بالإقبال على الفقه، فأذعن لرأيها، وأقبل على الفقه والحديث، ذلك الإقبال الذي جعل

منه إمامًا جليلا من كبار الأئمة الذين يشار إليهم بالبنان، لقد قامت الأم الصالحة بدورها أكمل قيام، وأرشدت ولدها لطريق الحق لتزيحه عن طريق تراه لا يليق به ولا يليق بما كانت تنشده له، لقد كانت نصيحتها مهددة بالسقوط لو أن ولدها شق طريقه للمرآة يتحسس رأى أمه فيه، فما كان مالك قبيح الوجه رديئه، وإنما كان جميل المحيا، مكتمل البنية، أبيض اللون إلى شقرة، ولكن صلاح الأم ورجاءها في صلاح الإسلام بنصيحتها الغالية جعلته إمامًا عظيمًا، ومجتهدًا فريدًا، بل صنعت بإرشادها مذهبًا بأكمله يرشد الناس ويعلمهم أصول الإسلام.. ويا ليت هذا الصلاح العظيم، والذى كمن في نفس أم مالك يحل بأمهات العصر، فما أحوج أبنائنا اليوم لأمهاتٍ صالحات، يصنعن منهم أبطالاً عظماء، كما صنعت تلك الأم العظيمة من ولدها الصغير، ولنتعمق في تأملنا للموقف لنستخلص ما فيه من دروس جليلة ونقاط رشيدة فريدة:

أولا: إن الأم الصالحة حضّت ولدها على طريق الحق والخير، فلم تنظر للدنيا وزينتها وما تدره عليها وعلى ولدها من مال وشهره، فما أسهل أن ينحرف الفقراء وزوو الحاجة أمام زيف الشهوات، لكن لسانها نطق بما استقر في عقلها وهو ما يبلغ

بها وولدها لبر الأمان.

ثانياً: لم تستخدم اللين حينما اقتلعت جذور تلك الرغبة من أعماقه، فكانت طريقتها جافة مؤلمة، قد تحزنه وتفجعه وتسبب له ضيقًا كبيرًا أو حسرة، حينما قالت: «إن وجهك قبيح، والمغنى لابد أن يكون جميل المحيا وضيء القسمات، والناس لا يحبون المغنى قبيح المنظر»، وهو جفاء يخفي حبًا كبيرًا ورغبة في مصلحته.

ثالثًا: قد يظن الآباء والأمهات أن الطعام والكسوة هما المسئولية الكبرى تجاه الأبناء، وهذا أعظم خطأ وأفدح تصور، فالتربية الصالحة، والسلوك الأخلاقي، وما يُجبل عليه الطفل من سمات الخير، أعظم مسؤولية، منك نحو ولدك، بل أفضل عطية تقدمها له في حياته، لتجعل منه إنسانًا صالحًا لمجتمعه وأمته، وهو ما فعلته أم مالك.

رابعًا: إنها لم تقل له: هل هناك مغنٍ قبيح المنظر فقط لتفت من عزمه ورغبته في الغناء، ولكنها قالت بجوار ذلك:«إن الناس لا يحبون المغنى قبيح المنظر»، وهى بهذا تشدد عليه الأمر وتزيد من صعوبته، وكان من الممكن أن يسير في طريقه غير عابئ بقبحه

أو جماله، فالمهم صوته لا شكله، ولكنها قذفته بكلماتها الحاسمة وهى (الناس) لتكون حجرة عثرة في طريقه واستجاب مالك لطلب أمه وانصاع لنصحها فترك الغناء وطلب الفقه ليسير إلى قدره المنتظر ليكون عبقريًا عظيمًا بفضل الأم الصالحة، وأخلاقها الراشدة وتربيتها السديدة.

يقول الإمام مالك: كانت أمي تجهز عمامتي وأنا صغير قبل ذهابي لحِلق العلم، فتقول لي: يا مالك، خذ من شيخك الأدب قبل العلم.

أنفقت عليه ليكون إمام الدنيا

وهذه أم (ربيعة الرأى) شيخ الإمام مالك؛ أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار، خلفها زوجها عندها وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل، فشكر الرجل صنيعها، وأربح تجارتها في قصة رائعة ذكرها ابن خلكان، حيث قال: «وكان فروخ أبو ربيعة قد خرج في البعوث إلى خرسان أيام بنى أمية، وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته (٣٠,٠٠٠) دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة، وهو راكب فرسًا وفى يده رمحًا، فنزل ودفع الباب فخرج ربيعة، وقال : «يا عدو الله أنت دخلت على حرمي؟ فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك ابن أنس، فأتوا يعينون ربيعة وكثر الضجيج ، وكل منهما يقول

: «لا فارقتك» فلما بصروا بمالك سكتوا ، فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار. فقال الشيخ: هي دارى، وأنا فروخ. فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجي، وهذا ابنى الذي خلفه وأنا حامل به. فاعتنقا جميعًا وبكيًا، ودخل فروخ المنزل، وقال: هذا ابنى؟ فقالت: نعم. قال: أخرجي المال الذي عندك، قالت: المال قد دفنته وأخرجه بعد أيام.

ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقته، فأتاه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، وأحدق الناس به فقالت أمه لزوجها فروخ: اخرج فصل في مسجد رسول الله ﷺ، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها، فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يرمه أنه لم يره وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا ربيعة بن أبى عبد الرحمن فقال: لقد رفع الله ابني، ورجع إلى منزله، وقال لوالدته: لقد رأيته في حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟، فقال: لا والله، بل هذا، فقالت: أنفقت المال كله عليه، قال: فوالله ما ضيعته»[1]

(١)- صفة الصفوة (١٨٩/٣).كما ذكرت في تاريخ الخطيب و في إسنادها أحمد بن مروان الدينوري صاحب كتاب المجالسة و قد اتهمه الدارقطني بوضع الحديث فالقصة في سندها كلام

فما أعظم هذه الأم التي قامت وحدها دون مساعدة أحد برعاية ولدها وتربيته حتى خرج إمام الدنيا وسيد الناس وأعلم أهل زمانه، رسالة قوية ساخرة مرسلة من هذا الزمان الغابر للزمن الحاضر الذي يتهم المرأة بأنها لا تستطيع تربية الرجال وصنع الأبطال والأفذاذ.

باعت ذهبها لتعلم ابنتها

ومع نموذج آخر للأم التي انتصرت على بعض الصعوبات من أجل تعليم ابنتها التي كان لها فيما بعد شأن عظيم، الأديبة الكبيرة الدكتورة (عائشة عبد الرحمن)، لقد رفض أبوها الشيخ إلحاقها بالمدرسة الأولية في دمياط، ولكن والدتها الحصيفة كانت لديها رغبة شديدة في تعليم فتاتها، فلم تستسلم لإباء الوالد، فاستعانت عليه بشيخه وإمامه في التصوف والذي لا يستطيع أن يخالف له أمرًا أو يرد له كلمة، فقبل مكرهًا أن تلتحق بالمدرسة بعد أن تجاوزت سن القبول ببضع سنوات، واصطحبتها أمها من دمياط إلى المنصورة لتحاول إلحاقها بمدرسة المعلمات، ولكن المدرسة ترفض قبولها لأنها تجاوزت السن المقرر. فهل يئست الأم واستسلمت لهذا الواقع المثبط؟ لا، فبدلاً من أن ترجع

محبطة كئيبة إلى مدينتها، اتجهت على الفور إلى محل صائغ في المنصورة وباعت فيه أسورتها الذهبية، وتوجهت بفتاتها إلى القاهرة لتحاول إلحاقها بمدرسة حلوان، وتغلبت بنت الشاطيء على تلك العقبات بفضل هذه الأم القوية التي حفزت فتاتها، ووجهتها للعلم.

وتؤدي بنت الشاطيء امتحان الكفاءة من منازلهم، ودون أن يعلم والدها بهذا لتكون المفاجأة المذهلة وحصولها على المرتبة الأولى على مستوى القطر كله، وبفارق ١٥٠ درجة عمن دونها في الترتيب. كان الجميع يحثها على التوجه للتعليم الحديث حتى تأخذ طريقها للجامعة – فقابلتها عقبة أخرى وهي اللغة الإنجليزية التي لا تدري عنها شيئًا، فتحاول جاهدة أن تلم بها وفي الامتحان كانت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على موضوع الإنشاء فحفظته، وكان عن (السندباد البحري). ولكنها وفي الامتحان نسيت كلمة (نسر) التي تتكرر في الموضوع ويعتمد عليها أكثر جمله، فتظل حائرة، وتصاب بنوع من اليأس، ويتبدد أمامها حلمها في دخول الجامعة واستكمال أملها المرجو، وبينما هي في هذا الأسى، تلمح بعينيها وعلى قلمها الرصاص الذي تكتب به إجابتها، كلمة نسر باللغة الإنجليزية العلامة التجارية على

القلم، فاستأنفت إجابتها، وانقشعت غيوم اليأس من صفحتها، وتنجح وتواصل طريق تعليمها الحديث حتى الجامعة ،وتأهلت لمرحلة أخرى إذ كانت على موعد مع أستاذها ومعلمها وزوجها فيما بعد (أمين الخولي) الذي ساندها وعاونها حتى حصلت على الماجستير والدكتوراه، وصارت الأديبة الدكتورة (بنت الشاطيء)، وكتبت متسائلة عن والدتها: هل كان حنان الأمومة هو الذي دفعها إلى مساعدتي وهي تراني أذوي وأنا أرقب انهيار أمالي؟ أم تراها كانت تستشف أنني سأكون واحدة من الجيل الذي يشهد محنة الحيرة بين القديم الذي عرفه والجديد الذي يبلوه لأول مرة؟ أم لعلها كانت مسوقة، مثلما كنت بدافع لا إرادى له، لأن تدفعني إلي الطريق الآخر الذي لم أكن حتي أفكر فيه؟

❁❁❁

علمتني أمي الورع

حدثني أحد شيوخ الدعوة أن أمه هي أول من علمه الورع، وزرع في قلبه خشية الله والتنزه عن المعاصي في صغير الأمور قبل كبيرها، فقد كانت سيدة بيت ريفية بسيطة، لكنها كانت تقية تعرف الله وتخافه.

يقول: كان على سطح بيتنا جدار يفصل بيننا وبين سطح الجيران، وكان هؤلاء الجيران يسندون عليه أحمال الحطب التي يأتون بها من حقولهم، فيتساقط بعض أوراقها ورؤسها إلى سطحنا، فرأيت أمي يومًا تشمر عن ساعديها وتجد في جمع ما تساقط من هذه الأوراق على سطح بيتنا وترميها على سطح الجيران، فقلت لها: ماذا تفعلين يا أمي؟ فقالت: يا بني هذه الأوراق ليست ملكًا لنا وإنما هي حق الجيران، وحرام علينا أن

نأخذ منها شيئًا أو نبقها على سطحنا فيحاسبنا ﷲ عليها. كانت هذه الكلمات درسًا كبيرًا تعملت منه الورع وأكبرت به أمي، وعرفت منه معنى الخوف من ﷲ ، وأنه تعالى يحاسبنا على النقير والقطمير، ولا يستطيع هذا الموقف أبدًا أن يضيع من مخيلتي وكلما هممت بشيء ما خاصة فيما يتعلق بالحقوق، أتوقف ويأخذ شريط الذكريات يتراجع للوراء بسرعة البرق لأتذكر فعل أمي وكلماتها.

ومما يقصه علينا الدكتور محمد راتب النابلسي في نفس الإطار وحول ما فعلته أمه حتى تعلمه معنى الحلال والحرام فيقول: قالت لي أمي يومًا وأنا صغير: هل تستطيع أن تقول كلمة حلال وتظل شفتيك مفتوحة؟ حاولت ونجحت أن أقولها دون أن أطبق شفتاي، صفقت لي أمي وقبلتني ثم قالت: هل تستطيع أن تقول كلمه حرام وتظل شفتيك مفتوحة؟

حاولت مرارًا ولم أستطع فقلت حزينًا: لا أستطيع يا أمي مهما حاولت في النهاية تغلق شفتاي رغما عني. ضحكت أمي وقالت: هذا هو الفرق بين الحلال والحرام، يا بني الحرام إغلاق وشقاء والحلال فتح وسعادة، فاختر ما شئت؛ إما أن تفتح لك أبواب الدنيا والآخرة، وإما أن تغلق في وجهك.

ومن يومها إذا فعلت خطأ، أطبقت أمي شفتيها، وعلى وجهها حزن، وإذا فعلت عملاً صحيحًا فتحت شفتيها بابتسامة، وكانت تقول لي: إذا كنت تحب أن ترى ابتسامة أمك دائمًا فعليك بالحلال والطيب يا بني.

كبرت وحاولت ألا أفقد أمي ابتسامتها الرائعة، وعندما ماتت أمي ودخلت لأودعها ولأقبلها القبلة الأخيرة، فوجدتها مبتسمة مفتوحة الشفتين قلت: على العهد يا أمي، على الحلال إلى أن ألقاكِ.

وهذه أم أخرى تعلم ولدها حب القرآن إنها أم الدكتور (أحمد توتنجي) رجل العمل الإسلامي الكبير الذي لا أعرف مثله قدم للمسلمين في الشرق والغرب كما قدم، حتى لقبه أبو الأعلى المودودي بإمام الشباب.

يحكي الدكتور توتنجي في كتابه الذي أهداه إليّ عن سيرته الذاتية وكيف كانت أمه؟ وكيف تأثر بها؟ وكيف غرست في نفسه حب الطاعة والإيمان وحب القرآن؟ فيقول: «كم تلقيت منك يا أمي رحمك الله حب القرآن وحب الخلوة إليه، أنصت إليكِ وأنت تتلين سورة الكهف صبيحة كل جمعة، ونستمع

إلى صوتك الحاني رغم عدم تمكنك من التلاوة، فهو يأخذها إلى آفاق سورتي الملك والواقعة، وتطلبين إلينا أن نصوب لك حين تتلعثمين بلكنتك التركية، إلا أن طريقتك الحلوة علمتنا وحفرت في الفؤاد علامة ناصعة لحب القرآن، ولا أزال أتلو بعد صلاة الفجر ما تيسر لي من كلمات اللَّهَ، وهو ما سهل علي التحديات، ودعم ذاتي حين قررت ألا أفعل شيئًا كنت لا أستطيع أن أقوم به أمام والدي وإخوتي»[1]

كانت الأم المسلمة، تزرع في نفس أولادها التقوى وخشية اللَّهَ سبحانه وتعالى، وهذا للأسف دورها العظيم الذي افتقدته في هذا الزمان، ومن هنا كنا نجد الدين قويًا في نفوس الأجيال الأولى، وهذا يرجع ضمن ما يرجع لتقوى الأم، وحرصها على تقديم النصيحة والموعظة لأبنائها، فهذه أم طلحة التي كانت تصلي كل يومٍ وليلةٍ أربعمائة ركعة، وتقرأ من القرآن ما شاء اللَّهَ، هذه المرأة كانت تعظ ولدها، وتقول له: «ما أحسن صوتك بالقرآن، فليته لا يكون عليك وبالاً يوم القيامة، فبكى حتى غُشيَّ عليه»[2]

(١)- خمسون عامًا بين الشرق والغرب - د. أحمد توتنجي.
(٢) - صفة الصفوة لابن الجوزي: (٢/٢٥٦).

وهذه وصية الأم المسلمة التقية، لولدها المسافر: فعن أبي عبد الرحمن القرشى، عن رجل من بنى ثعلب قال: شهدت امرأة من أهل البادية توصي ابنًا لها أراد سفرًا، فقالت: يا بنى، أوصيك بتقوى الله، فإن قليلها أجدى عليك من كثير عقلك وإياك والنمائم، فإنها تزرع الضغائن، وتفرق بين المحبين ومثّل لنفسك ما تستحسنه من غيرك مثالاً، ثم اتخذه إمامًا واعلم أنه من جمع بين الحياء والسخاء فقد استجاد الحلة إزارها ورداءها»[1]

❁❁❁

(١)- قصص التابعيات: لمصطفى مراد.

أخاف أن أخون عهدها

كانت العراق في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية موطن الزهاد ومأوى العباد وقبلة العلم والعلماء، كان الجميع يرحلون إليها طلبًا للعلم والأخذ عن شيوخها الكبار الذين ملأوا الدنيا علمًا وفقهًا ومن هؤلاء الذين اعتزموا الرحيل إليها، العالم الرباني الشيخ (عبد القادر الكيلاني) رحمه الله فقد قال: «بنيت أمري في حين ما نشأت على الصدق، وذلك أني خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم، فأعطتني أمي أربعين دينارًا أستعين بها على النفقة، وعاهدتني على الصدق، فلما وصلنا أرض همدان، خرج علينا جماعة من اللصوص فأخذوا القافلة، فمرّ واحد منهم وقال: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً.فظن أني أهزأ به فتركني، فرآني رجل آخر، فقال: ما معك؟ فأخبرته بما معي، فأخذني

إلى كبيرهم فسألني فأخبرته، فقال: ما حملك على الصدق؟ فقلت: عاهدتني أمي على الصدق، فأخاف أن أخون عهدها. ! فأخذت الخشية رئيس اللصوص، فصاح ومزق ثيابه وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك، وأنا لا أخاف أن أخون عهد اللَّهَ؟ ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة، وقال: أنا تائب على يديك فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة، فتابوا جميعًا ببركة الصدق»[1] بل بنصيحة هذه الأم التي ربت ولدها على الصلاح ونصحته بالصدق.

وهكذا تسببت هذه الأم الصادقة التي أخذت على ولدها عهد الصدق في توبة هذه العصابة من قطاع الطرق ليصيروا من العارفين بالله المنيبين إليه، وفي العراق أيضًا تلك التي ما كان ينضب معينها من أهل اللَّهَ ..كان فيها نموذجًا من الرجال الكبار الذين كان لأمهاتهم تأثير كبير في حياتهم، وهو مسعر بن كدام الهلالي الكوفي الحافظ من أعلام الحديث، والذي أثنى عليه جمع غفير من العلماء والزهاد، فقال فيه يحيى بن سعيد: ما رأيت أحدًا أثبت من مسعر، وقال أحمد بن حنبل: الثقة كشعبة ومسعر. وقال وكيع: شكٌّ مسعر كيقين غيره. وقال هشام بن عروة: ما قدم علينا من العراق أفضل من ذاك السختياني أيوب

(١)- عبد الله علوان : تربية الأولاد في الإسلام، ج١، ص ١٧٥

وذاك الرؤاسي مسعر. وقال شعبة بن الحجاج: كنا نسمي مسعرًا المصحف يعني من إتقانه. وقيل لسفيان بن عيينة مَن أفضل من رأيت؟ قال مسعر، وقال يعلى بن عبيد: كان مسعر قد جمع العلم والورع. وقال ابن المبارك: من كان ملتمسًا جليسًا صالحًا، فليأت حلقة مسعر بن كدام، فيها السكينة والوقار وأهلها أهل العفاف وعلية الأقوام. وقال الحسن بن عمارة: إن لم يدخل الجنة إلا مثل مسعر إن أهل الجنة لقليل، قال خالد بن عمرو: رأيت مسعرًا كأن جبهته ركبة عنز من السجود.وقال محمد بن مسعر كان أبي لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن.وقال معن: ما رأيت مسعرًا في يوم إلا وهو أفضل من اليوم الذي كان بالأمس.

قال قبيصة: كان مسعر لأن ينزع ضرسه أحب إليه من أن يسأل عن حديث، وقال ابن السَّمَّاك رأيت مسعرًا في النوم فقلت أي العمل وجدته أنفع؟ قال ذكر الله.

ومما أنشد مسعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

وتَتْعَبُ فيما سوف تكره غِبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ومن شعره في الزهد قوله:

ومشيد دارًا ليسكن داره سكن القبور وداره لم تسكن

وهذه الصورة الزاهية لهذه الشخصية المبهرة، إنما كانت انعكاسًا لأم عابدة دربته وعلمته حب الدين والمران على العبادة وتقوى الله سبحانه، حتى كان ثمرة يانعة ملأت الدنيا علمًا وورعًا روى محمد بن سعد: كانت لمسعر بن كدام أم عابدة، وكان يحمل لها لدًا - شيئاً مثل البساط تصلي عليه - ويمشي معها حتى يدخلها المسجد، فيبسط لها اللد، فتقوم فتصلي ويتقدم إلى مقدمة المسجد فيصلي ثم يجلس، ويجتمع إليه من يريد فيحدثهم.

أرى ذلك من رضا أمي

(أبو يزيد البسطامي) ذلك الزاهد العابد العارف الذي طبقت شهرته الآفاق، وتعلم منه القاصي والداني ، ولقب بسلطان العارفين. تعالوا نتعرف على أمه وكيف كان لها التأثير في حياته؟ لقد كان أبوه رجلاً صالحًا يتحرى مرضاة الله في جميع شئونه، وكان الورع من صفاته البارزة، يتحرى الحلال في مطعمه وملبسه وشرابه ومسكنه، وحينما أحب أن يتزوج اختار فتاة يصفها المؤرخون حينما كانوا يتحدثون عن أبي اليزيد فيقولون: وكانت أمه في قيد الأحياء غريبة في النساء مع الضياء والبهاء، والستر والحياء، والتواضع والدعاء، والخوف والرجاء زاهدة عابدة صائمة قائمة، عفيفة شريفة، راضية مرضية. ومع أنها رضي الله عنها كانت على هذه الصفة من التقوى، فإن المؤرخين يذكرون

أن عيسى والد أبي اليزيد لما تزوجها لم يباشرها ويلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبق في جوفها أثر ما أكلته من قبل، وتناولته فيما غبر من الأيام التي كانت في بيت والدها، ثم لما باشرها ظهر من أولاده مثل أبي اليزيد رحمه الله، وكان يروي عن أمه كيف كانت تتحرى الحلال في مأكلها ومشربها، فكانت إذا قُدّم لها طعام من حلال امتدت يدها إليه، أما إذا قدم لها طعام فيه شُبهة امتنعت يدها عن تناوله. يقول أبو اليزيد: وكانت أمي لما حملت بي إذا قدم لها طعام حلال امتدت يدها إليه، أو حرام انقبضت. ثم يختم بقوله: فالعناية في الأزل، وها هو يعلن عن سر بلوغه مرتبة الأولياء حينما سئل مرة: بم بلغت ما بلغت؟ قال: أنتم تقولون ما تقولون، وإنما أرى ذلك من رضا أمي، وفي هذا الجو من الصلاح والتقوى نشأ أبو يزيد.!

يزعم الواهمون أن الأم لا تستطيع التربية، وأن الولد لو حرم من أبيه فاتته التربية الحقيقية، وأن من نشأ في حجر أمه تخطته سمات المروءة ونوازع الرجولة، ولكن المرأة المسلمة أثبتت عكس ذلك،! فقد بيّن التاريخ كيف استطاعت المرأة بتربيتها الراشدة أن تفوق كثيرًا من الرجال، وننظر هنا لتلك النصيحة التي وجهتها تلك الأم لولدها والتي ذكرها (نوح بن الأسود) والتي تدل على قدرة

المرأة على التربية والنصح والبراعة في الإرشاد والتوجيه.

يحكي (نوح بن الأسود) عن امرأة كانت تعظ ولدها فتقول: «ويحك يا بني احذر بطالات الليل والنهار، فتنقضي مهالات الأعمار، وأنت غير ناظر لنفسك ولا مستعد لسفرك، ويحك يا بني، ما عن الجنة عوض، ولا في ركوب المعاصي ثمن من حلول النار، ويحك يابني مهّد لنفسك قبل أن يحال بينك وبين ذلك، وجد قبل أن يجّد الأمر بك، واحذر سطوات الدهر وكيد الملعون (الشيطان) عند هجوم الدنيا بالفتن وتقلبها بالعبر، فعند ذلك يهتم التقي كيف ينجو من مصائبها..

ثم قالت: بؤسًا لك يا بني إن عصيت الله وقد عرفته وعرفت إحسانه وأطعت إبليس وقد عرفته وعرفت طغيانه»[1]

❊❊❊

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي

السيدة قطعة الذهب

التقيت بصديقي الأفغاني الدكتور (حياة الله عتيد) مدرب التنمية البشرية، وأخذت أستعيد عليه الماضي لكثرة ما فيه من محطات الكفاح والطموح، ثم طرقت باب الحديث عن أمه السيدة (بي زار لشتة) والتي تعني بلغتهم (قطعة الذهب)، وماذا كانت تمثل في حياته، وهل يذكر لها في حياته أي موقف مؤثر؟ فإذا بي أكتشف أن أمه في حياته هي كل حياته.

فقد كان أبوه الشيخ (قل ولي) ذا مكانة مرموقة بين قومه، وكان عالماً تقياً ورعاً يعلم الناس اللغة العربية والقرآن وعلومه والتفقه في الدين وحفظ القرآن، وكان الناس يجلونه ويحبونه، ولما ولد حياة الله، كان طفلاً مضمحلاً ضعيفًا يتوقعون موته، فسماه أبوه بهذا الاسم وقال: لو عاش فأنا أهبه لله فهو حياة الله، ولم تدم حياة

والده كثيراً، فسرعان ما استشهد في الحرب الأفغانية الروسية، ورحل عن الحياة تاركًا زوجه الأرملة وأطفالها الستة يعيشون وحدهم في الدنيا، يقاسون آلامها وعناءها.

كان من عادة الأفغان في ذلك الوقت، أن الزوج إذا مات فإن إخوته يأخذون أطفاله للخدمة والعمل، ويجبرون زوجته على الزواج دون اعتبار لرغبتها أو إرادتها، ولكن الزوجة وهروباً بأبنائها من هذا المصير النكد، لم تسافر إلى المنطقة التي يقيم فيها إخوة زوجها حتى لا تتعرض لمثل هذا.

وعكفت على تربية أبنائها وأرادت أن تقوم برسالتها كأم. لم تكن تدرك الزوجة المسكينة أنها ستكمل وحدها مسيرتها لتحقق تلك الرغبة التي أرادها زوجها في طفلهما حياة الله، ولكنها استطاعت أن تكملها وبجدارة.

يقول (حياة الله عتيد) وهو يستعيد ذكرياته مع أمه في مراحل تربيتها له ولإخوته:

«كانت أمي أُمية لا تقرأ ولا تكتب، ولكنها كانت تستطيع أن تقرأ القرآن! ورغم هذه الأمية، إلا أنها كانت تتابعني في دورسي كل يوم بشكل غريب، فكانت تمسك بكتبي وقراطيسي ،

وتظهر لي في ملامح وجهها شيئًا من الحزم والصرامة، تجعلني أرتعب وأشعر كأنها مديرة المدرسة تراقبني وتسألني وعليّ أن أجيب، فكانت تقول لي: ماذا أخذت في دروسك اليوم؟ ماذا ذاكرت منها؟ أين واجبك؟ أكمل دروسك، لن أسمح لك اليوم بالخروج، ذاكر دروسك.

كان هذا شعوري رغم كونها أمية لا تقرأ ولا تكتب، لم تكن تضربني ولكنها كانت تخيفني بنظراتها، وكانت عند أي تقصير تراه مني ومن إخوت،ي ما كانت تفعل شيئًا إلا أنها كانت تأخذني وتشير بيديها إلى كتب والدي التي علاها التراب وتقول لي: انظر إلى هذه الكتب، كتب أبيك، لقد راح أبوك ومات، من سيقرأها؟

كانت تقول ذلك وهي تبكي، وكنتُ أنا أشعر بهذه الإشارة بثقل الأمانة، وأن هذه الكتب هي الرسالة التي تنتظرني لأحملها وأقوم تجاهها بواجبي، وأحقق فيها موعود أبي.

كانت تقول لي: إذا أنت لم تقرأ فمن سيقرأ إذًا، إنك إذا لم تقرأ ستكون مجرد عامل بسيط، تعمل في الأعمال اليومية، تنظف بيوت الناس وتخدم عند الناس، وهذه الكتب التي تركها أبوك

ستبقى هكذا.. لقد كانت هذه الكلمات تحدث في نفسي هزة عنيفة قوية تزلزل مشاعري، وبفضل هذه المتابعة من أمي لا أذكر أنني نمت مرة وعلي واجب مدرسي لم أنجزه، فقد كنت أنهي واجبي قبل نومي، لأنها كانت تقول لي: كيف تنام ويرتاح ضميرك وعليك واجب لم تنجزه؟»

ويحكي لنا موقفًا رائعًا فيقول:

لقد غرست أمي في نفسي معنى الورع وتقوى اللَّهَ والخشية من الحرام، فأذكر أنها كانت تدفعني لحفظ القرآن وترسلني للمسجد في الليل قبل صلاة الفجر لأراجع وأحفظ القرآن، وكانت تعطيني السراج حتى أستطيع الرؤية في الليل، وكانت تقول لي: يا عتيد لن أسامحك إذا استخدمت سراج المسجد وأخذت منه زيتًا، لأنه ملك للناس ومصلحة عامة، أما سراجك فخاص بك وإذا فعلت ذلك فلن تستطيع أن تستفيد من علمك وحفظك للقرآن، وكنت أرد عليها وأقول لها: نعم يا أمي فأنا أحفظ قول الشافعي:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المعَاصي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... ونورُ اللَّهَ لا يهدى لعاصي

والآن تحقق أمل هذه الأم في ولدها، وما زال يذكر جارة لها كانت تجلس معها وتواسيها بقولها: إن ابنك هذا ستسمعين قرع نعله في يوم من الأيام، أي أنه سيصير شيئًا مهمًا.

وها هي اليوم تشاهدني في التلفاز، وتستمع إلى أحاديثي ولقاءاتي، وترى شهرتي في كل مكان، وحينما أذهب لزيارتها أمازحها وأدب لها بقدمي في الأرض، لأذكرها بما قيل لها في يوم من الأيام.!

أيتام لكنهم عظماء

كان أبوه عالمًا صالحًا وكانت أمه تقية صالحة، أصيب بالعمى وهو صغير، فرأت أمه في منامها يومًا كما ذكر هو عنها: أن الخليل إبراهيم عليه السلام جاءها وقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك عليه، فأصبحت وقد شفي ابنها. ولعل هذه الأم المباركة كان لها أكبر الأثر في خدمة الإسلام والمسلمين، حينما وجهت ولدها لطريق العلم ليخرج بعد ذلك الإمام البخاري، صاحب الصحيح العظيم الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، والذي هو المرجع الأول لكل مسلم في سنة الرسول الكريم ﷺ.

نشأ البخاري يتيمًا حيث توفي أبوه مبكرًا، فلم يهنأ برؤية مولوده

الصغير، لكن الأم تعهدت وليدها بالرعاية والتعليم ودفعته إلى طريق العلم دفعًا، وحببته فيه، وزينت له الطاعات، فشب مستقيم النفس، عف اللسان، كريم الخلق والخصال، مقبلاً على عبادة الله، وما أن انتهى من حفظ كتاب الله حتى بدأ يتردد على حلقات المحدثين، ومالت نفسه للحديث ووجد فيه متعته، وما كاد يبلغ السادسة عشرة حتى حفظ كتب ابن المبارك ووكيع وغيرهما من كبار الأئمة، وأخذ العلم عن ألف شيخ لقيهم في كثير من البلدان والأمصار التي رحل إليها، حتى صار إمام الأئمة وسيد الأمة.!

كل هذا بفضل هذه الأم المباركة حين وجهته لطريق العلم وحببته فيه، وإن فعلها ليشابه تمامًا ما فعلته أم الإمام الأوزاعي الذي شهد له العلماء الموثوقون بالفضل والورع والخلق والاستقامة، والحق أن هذه الشهادات قبل أن تشيد بفضله فإنها تشيد قبل ذلك بفضل الأم التي ربته وعلمته وهو يتيم فقير، وتنقلت به من بلد إلى بلد فتأمل ماذا أخرجت وكيف ربت؟

إنه الإمام أبو عمر الأوزاعي الذي قال عنه النووي رحمه الله:

وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعى، وجلالته، وعلو مرتبته، وكمال فضله، وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة مصرحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وتمسكه الشديد بالسنة، وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته.

قال الذهبي رحمه الله: «قال العباس بن الوليد: فما رأيت أبى يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعى، فكان يقول: سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعي يتيمًا فقيرًا في حجر أمه، تنقله من بلدٍ إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيته.

يا بني! عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعت منه كلمه قط فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يقهقه، ولقد كان أخذ في ذكر المعاد، أقول في نفسي: أترى في المجلس قلب لم يبك؟»[1]

(١)- سير أعلام النبلاء.

أما (الثوري) أمير المؤمنين في الحديث، فما كان إلا ثمرة أم عظيمةٍ شجعته على طلب العلم رغم حاجتها للمؤنة، فقد توفي والده وهو دون التاسعة من عمره، واعتنت به والدته خير اعتناء فوجهته لدراسة الحديث في المسجد وكانت تغزل بمغزلها ذات يوم وباعت ما غزلته بعشرة دراهم، ثم دعت إليها ابنها سفيان وقالت:

ياسفيان هذه عشرة دراهم، اذهب فاطلب بها الحديث في المسجد، ثم انظر يا بني إن وجدت أثرًا لما تعلمته على عقلك وقلبك وعملك، فتعال أعطك عشرة دراهم أخرى حتى تطلب بها العلم، وإن لم تجد أثرًا لذلك فاترك العلم يا بني فإنه يأبى إلا أن يكون لمخلص..

وهذا الشافعي الذي ملأ طباق الأرض علمًا وانتحل مذهبه خلق عديدون، كان أيضًا ثمرة أم عظيمة، فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها وكانت من العابدات القانتات العاملات، استطاعت أن تجعل منه إمام المسلمين.

وعلى نفس الدرب،كان الإمام العظيم، والحافظ الكبير

المعروف بابن الجوزي حين توفي والده وله من العمر ثلاث سنين، لم يؤثر ذلك في نشأته نشأة صالحة حيث أبدله الله عمته مربية مخلصة أعطته من حبها وعنايتها ورعايتها، وسهرت على خدمته وتعليمه فهي التي حملته لمسجد (أبي الفضل بن ناصر) فتلقى منه الرعاية التامة، والتربية الحسنة، حتى أسمعه الحديث.!

الأم في حياة القادة والزعماء

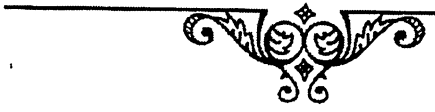

أنا ابن هند

لقد كانت الأم تغرس في ولدها معالم الطموح، وتؤهل فيه سمات العظمة والصدارة، فقد كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما كلما نوزع للفخر؛ باهى المتفاخرين بأمه فيقول: أنا ابن هند..! نعم فلقد كان لها الفضل في تنشئته وغرس نزعة الطموح في نفسه، وتنمية مواهبه وقدراته في السياسة والدهاء، فمنذ يفاعته كانت توضح له في عدة مناسبات حدود مطامحها في تربيته، ومن تلك المناسبات أنه «كان يمشي معها يومًا فعثر فقالت: قم لا رفعك الله وكان هناك أعرابي ينظر، فقال: لم تقولين له؟ فوالله لأظنه سيسود قومه، فقالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه» (١)

«ونظر إليه والده أبو سفيان يوما وقال: إن ابني هذا لعظيم

(١)- سير أعلام النبلاء (١٢١/٣)

الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط؟! ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة.» [1]

إن هذه الجملة التي حددت له الهدف دون الوسيلة بقيت في حافظته، يقيس بها ما توصل إليه من مجدٍ، فيرى أنه لم يحقق حلم أمه فيه، فحين أصبح واليًا على دمشق سنة (٢٠) للهجرة استقل ذلك، لأنه لم يصل إلى الهدف الذي رسمته له، ولم يحقق ما يرنو إليه مطمحها، فسعى إلى الخلافة بشتى الوسائل حتى نالها، وحق لمعاوية أن يفاخر بأمه فقد كان لديها حكمة بالغة، وفطنة كبيرة، تضاهي بها ذكاء، أفطن الرجال وأكثرهم كياسة وذكاء وإذا أردنا أن نعرف ذلك ونلمسه، فللنظر وصيتها لولدها حينما تقلد الإمارة في عهد (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه ، فقد جاء في العقد الفريد: «لما قدم معاوية من الشام – وكان عمر قد استعمله عليها – دخل على أمه هند، فقالت له: يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته، ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعًا وصاروا

(١)- البداية والنهاية (٣٩٨/١١)

قادة، وقد قلدوك جسيمًا من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لنوفست فيه، قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ.»[1]

وشاهد القول من هذا، أن الأم التي تعي دورها في الحياة، وفي التربية بخاصة، لجليلة مباركة، تستطيع صنع الأمجاد لما تدخره في أطفالها من مطامح كبيرة، وأهداف نبيلة، ولكن لم يستطع معاوية أن يودع في ولده يزيد وخليفته من بعده، ما كان يتمتع به هو من الرأي والحلم والسياسة، والسبب في ذلك أن أمه أعرابية ساذجة، تزوجها معاوية لجمالها، ولمكان قبيلتها وعشيرتها!

❁❁❁

(١)- العقد الفريد لابن عبد ربه.

قم فالقسطنطينية بانتظارك

هذا السلطان الصغير الذي تولى الحكم وعمره (٢٢) عامًا وحقق أعظم إنجاز في تاريخ الإسلام وهو فتح القسطنطينية كان الفاتح نعم الأمير ونعم القائد، أدار الدولة وقادها أحسن قيادة، ونشر الإسلام في أوروبا وتوج انتصاراته بهذا الفتح العظيم فتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الاسلامي، وهي التي بشر الرسول ﷺ بفتحها يوم الخندق كما قال في موطن آخر: «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1] ومن يومها وهذا الفتح يراود كثيرا

(١)- أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك.

من خلفاء المسلمين وقادتهم، فمنذ أيام معاوية والذي وجه إليها حملته الاولى عام (٤٤)هـ فلم تنجح، وفي أيام سليمان بن عبد الملك كانت أقوى الحملات الاسلامية لإسقاط المدينة ولكنها باءت بنفس النتيجة وكذلك شهد العصر العباسي محاولات مماثلة لم تنجح، ولما جاء عصر العثمانيين كانت لهم محاولات أخرى قام بها بايزيد الصاعقة عام (٧٩٦)هـ، فلم يفلح، وفي عهد مراد الثاني جرت محاولات لهذا الفتح وحاصر المدينة بجيوشه أكثر من مرة فلم يفلح، حتى جاء ولده محمد الفاتح الذي حقق الحلم الكبير .

ويذكر المؤرخون أن والده اهتم بتأديبه وأن الذي كون شخصيته وأشرف على تربيته الشيخ (آق شمس الدين) غرس في نفسه حب الجهاد ومناه كثيرا بأنه المعني في حديث الرسول ﷺ «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»، ولكن مع هذه الجهود الطيبة من هذا الشيخ، فإن الفاتح لم تكن لشخصيته أن تكتمل، ولغايته وهدفه أن يتحقق، لو لم تكن له هذه الأم التي رسمت له منذ صغره

مهمته وهدفه ورسالته. وهب ﷲ للفاتح هذه الأم الفاضلة التي ربته على مكارم الأخلاق وأعدته للمهمة التي كان يحلم بها الكثيرون من القادة، لقد كانت تأخذه وهو طفل صغير وقت صلاة الفجر لتريه أسوار القسطنطينية، وتقول له في ثقة: أنت يا محمد تفتح هذه الأسوار اسمك محمد كما قال رسول اللهﷺ، والطفل الصغير يقول: كيف يا أمي أفتح هذه المدينة الكبيرة؟ فترد عليه الأم: بالقرآن والسلطان والسلاح وحب الناس.

واستمرت الأم العظيمة تغرس فيه هذه المعاني، حتى بلغ عمره ٢٢ سنة، ومات أبوه السلطان مراد الثاني، ودخلت أمه عليه وهو يبكي على أبيه فقالت له: أنت تبكي فماذا تفعل النساء؟ قم، القسطنطينية بانتظارك، وأعداء أبيك في كل مكان.!

اللآلئ التي أعاقت حلم اليهود

السلطان (عبد الحميد الثاني) آخر الخلفاء العثمانيين من أكثر الرجال في تاريخنا تعرضًا للتشويه والبغض من قبل العلمانيين والشيوعيين، الذين حملوا عليه بزورهم، وشوهوا شخصه وحقيقته التي كانت على خلاف ما يقولون ويدعون، لأنه رفض أطماعهم وكشف مؤامراتهم في القضاء على الهوية الإسلامية، لقد كان عبد الحميد أميرًا مختلفا ليس ككل الأمراء؛ في حياته وعاداته وصفاته، كان معروفًا بعبادته وتقواه وتمسُّكه بالدين حيث تقول عنه ابنته عائشة في كتابها (والدي السلطان عبد الحميد): «كان والدي يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها، ويقرأ القرآن الكريم، وفي شبابه سلك مسلك الشاذلية، وكان كثير الارتياد للجوامع لا سيما في شهر رمضان»، كما كانت حياته ومنذ شبابه تتسم بالبساطة الشديدة، والابتعاد عن البذخ والإسراف

والتبذير، واستمرّت بساطته حتى في أيام السلطنة، ففيما كان الأمراء السابقين مولغين حتى أذقانهم في الديون واللهو والمجون، كان عبد الحميد هو الأمير الوحيد الذي لم يُشارك في مثل هذه الأمور، فقد امتاز عن أسلافه من السلاطين بأنه لم يستدن قرشًا واحدًا من أحد، وبهذا عصم نفسه من أن يقع في حبائل أصحاب البنوك وجُلّهم من اليهود، ورجل بهذه الصفات ما كان ليتركوه دون أن يشوهوه ويحولوا كل محمدة فيه إلى مذمة ويجاهدون لإخفاء جهاده وتمسكه بهويته الإسلامية.

قام عبد الحميد بعدة إصلاحات داخلية كان لها مسارها المزعج في أذهان الغربيين وعملاءهم الذين استهدفوا هوية العالم الاسلامي، فظهر لهم بطموحاته وقراراته التي تقف في وجه مآربهم، فجاهد في قضية تعريب الدولة وكان يرى ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية، كما حارب التأثر بالفكر الغربي في المدارس ووجهها إلى الدراسات والمناهج الإسلامية، وأمر باستبعاد المواد التغريبية التي تؤثر على أجيال المسلمين سلبًا وجعل مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الاسلامية، وأهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات، وحارب السفور، وهاجم تسرب أخلاق الغرب إلى بعض النساء

العثمانيات، وكان من أعظم آثاره وتاريخه أنه قاوم اليهود في مشروعهم الصهيوني، ورفض رغبتهم في إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، واتصل به «هرتزل» مرارًا ليسمح لليهود بالانتقال إلى فلسطين، وزاروه في وفد كبير وقدَّموا له الإغراءات الكبيرة، لكنه رفض بشدة وطردهم من مجلسه وقال: «إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا فلن أقبل! إن أرض فلسطين ليست ملكي إنما هي ملك الأمة الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يباع، وربما إذا تفتت إمبراطوريتي يوماً، يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل!»، ثم أصدر أمرًا بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين.»[1]

ويومها أدركوا أنهم أمام رجل قوي فقرروا الإطاحة به وإبعاده عن الحكم، فاستعانوا بالقوى الحاقدة التي نذرت نفسها لتمزيق ديار الإسلام، ولعلنا الآن نريد أن نعرف ما هو السر في اختلاف هذا الرجل والسر في تكوينه والسبب في صورته التي كانت تُغاير كثيرًا من الأمراء والملوك؟

وهو أمر يهتدي إليه الباحث بسرعة لا عناء معها، حينما يتعرف على نشأته وعلى يد من تربى، وفي أحضان من ترعرع،

(١) - موقع الدرر السنية.

لقد توفيت والدته من مرض السلّ وهو في الثامنة من عمره، فاحتضنته الزوجة الثانية لوالده (بيرستو قادين) التي كان معروفًا عنها شدة التديُّن، وأسبغت عليه كل حنانها وعطفها وحبها، وقد بادلها عبد الحميد هذا الحب، فكان يقول عنها: «لو كانت والدتي حيَّة لما استطاعت أن ترعاني أكثر من رعايتها»، وعندما توفيت، أوصت بجميع ثروتها لابنها الذي أحبّته، وتأثر السلطان عبدالحميد بهذه التربية، وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره؛ لذا منحها عند صعوده للعرش لقب السلطانة الوالدة.

❁❁❁

السيف الذي أرعد أوروبا

كانت الأندلس تميد بالفتن فوليّها (عبد الرحمن الناصر) فما لبث أن تمكن منها، ولانت له، ثم خرج بجنده، فافتتح سبعين حصنًا في معركة واحدة، ثم توغل بعد ذلك في قلب فرنسا وسويسرا وضم أطراف إيطاليا، حتى راعه الجميع وهابوه، فكان أعظم أمراء بنى أمية في الأندلس، حكم مدة خمسين سنة وستة أشهر، وبعد ما كانت قرطبة إمارة، أصبحت خلافة يحتكم إليها عواهل أوروبا وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها.

ويحكي الدكتور السرجاني في محاضراته الأندلسية قوله : ذاع صيت عبد الرحمن الناصر -رحمه الله- في الدنيا كلها، ورضيت منه ممالك الشمال بأن تعطيه العهد والجزية، وقد جاءت

السفارات من كل أوربا تطلب ودَّه، فجاءت من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا، بل جاءت من أقصى شرق أوربا من بيزنطة، وهي بعيدة جدًّا عن عبد الرحمن الناصر لكنها جاءت تطلب ودَّه وتُهدي إليه الهدايا، وأشهرها كان جوهرة ثمينة وكبيرة، كان يضعها عبد الرحمن الناصر في وسط قصره، الذي يقع في مدينة الزهراء، «وكانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية».

وهكذا كان عزُّ الإسلام ومجده متمثلاً في عهد عبد الرحمن الناصر -رحمه الله، حتى أصبح -بلا منازع- أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى، وهذا ما جعل إسبانيا سنة (١٩٦٣م) تحتفل -وهي على نصرانيتها- بمرور ألف سنة ميلادية على وفاة عبد الرحمن الناصر؛ لأنه كان أعظم ملوك إسبانيا على مرِّ العصور، فلم يستطيعوا أن يُخفوا إعجابهم بهذا الرجل الذي رفعهم في العالمين، الذي كانت الأندلس في عهده - وبلا جدال - أقوى دولة في العالم.

كما نقل لنا شيئًا من طبيعة هذا الملك العظيم والخليفة المقدر.. هذه الطبيعة التي تتسم بالجد والحزم، لكنها لم تفقد طابعها الانساني ورونقها الإيماني، فمَنْ يقرأ أو يسمع مثل ما سبق

يجول في خاطره أن مثل هذا الرجل لم يكن يعرف إلاَّ طريقًا واحدًا، هو طريق العظمة والجدية التامَّة، طريق العزَّة وعدم الخنوع، وهذا وإن كان صحيحًا إلاَّ أن مَنْ ينظر إلى شخص عبد الرحمن الناصر -الذي ظلَّ يحكم البلاد نصف قرن كامل- لَيَرَى العَجَبَ العُجاب؛ فقد كان مع كل هذا السلطان وهذا الصولجان، دائمَ الذِّكْر لربه سريع الرجوع إليه.

حدث ذات مرَّة قحط شديد في الأندلس، فأرسل الناصر رسولاً من عنده يدعو القاضي منذر بن سعيد بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال منذر للرسول: ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا؛ إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخس الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تُعَذِّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني، قال الحاكي: فتهلَّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله، وقال: يا غلام؛ احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض، فقد رحم جبار السماء. وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلاَّ عن السقيا»

قال عنه الذهبي: كان شجاعًا شهمًا محمود السيرة، لم يزل يستأصل المتغلِّبين حتى تم أمره بالأندلس، واجتمع في دولته من العلماء والفضلاء ما لم يجتمع في دولة غيره، وله غزوات عظيمة ووقائع مشهورة، قال ابن عبد ربه: قد نَظَمتُ أُرجوزة ذكرتُ فيها غزواته. قال: وافتتح سبعين حصنًا من أعظم الحصون، ومدحه الشعراء.

وقال عنه الصفدي: ولم يكن بعد عبد الرحمن الداخل أجزل منه - أي الناصر - في الحروب، وصحة الرأي، والإقدام على المخاطرة والهول، حتى نال البُغيَة... فرتب الجيوش ترتيبًا لم يُعهَدْ مثلُه قبله، وأكرم أهل العلم، واجتهد في تخيُّر القضاة، وكان مُبَخَّلاً لا يُعطي ولا يُنفق إلاَّ فيما رآه سدادًا.

أتدري ما سر هذه الهمة؟ وما مهبط وحيها؟ إنها المرأة وحدها، فقد نشأ عبد الرحمن يتيمًا، قتل عمه أباه وعمره واحد وعشرون يومًا، فتفردت أمه بتربيته وإيداع سر الكمال وروح السمو في ذات نفسه، فكان من أمره ما علمت.

الأم التي رفضت الخيانة

كانت شجرة الدر هذا الاسم اللامع الذي حفر لنفسه مكانًا كبيرًا في تاريخ مصر، وكان لها دورها المؤثر وموقفها الفريد وعملها المبهر الذي قدره لها المصريون، وأشاد به التاريخ، وأكبره فيها كل مجاهد بطل حمل سيفه ليزود عن حياض وطنه وشعبه ضد الغزاة المحتلين، قدر لهذه الفتاة الحسناء أن تحكم مصر ثمانين يومًا، وأن تحسن في إدارتها في أشد اللحظات الحرجة التي مرت بالبلاد حيث كانت الحملة الصليبية السابعة التي احتل فيها الفرنسيون وملكهم لويس التاسع دمياط، وأخذوا يعدون العدة للعدوان على القاهرة، وفي هذه الظروف العصيبة والدولة كلها تستعد لصد العدوان بجيشها وشعبها وعدتها وعتادها ،يموت زوجها السلطان في معسكره بالمنصورة، وهو النبأ الذي لا شك لو علمه الجيش والجنود فإنه يؤثر على معنوياتهم، ويفت من عزمهم، ويكون له وقعه الكبير والمؤثر على حماسهم، حينما

يعلمون أنهم بلا قيادة حيث تتبدد القوة وينهار العزم في مواجهة الغزاة المحتلين؛ فالسلطان دومًا هو مصدر القوة والإلهام الذي يدفع الجنود ويحثهم على النصر ويزج بهم إلى ساحة الفداء، لكن شجرة الدر أدارت الأزمة باقتدار كبير، وأخفت النبأ عن الجميع وسيرت الأمور بكفاءة منقطعة النظير، حتى تمكن الجيش من الانتصار ودحر الفرنسيس، وأسر ملكهم لويس التاسع في دار ابن لقمان، لقد بحثنا في التاريخ عن أصول شجرة الدر. وحاولنا تقصي نشأتها الأولى وأصولها المجهولة، إلا أن المصادر الموثوقة لم تسعفنا بشيء، فلا يعلم أحد من أين جاءت شجرة الدر وكيف ظهرت، لكن المؤكد أن شأنها شأن أولئك الأغراب الذين حكموا مصر وتربعوا عليها كابن طولون والإخشيد وبدر الجمالي ومحمد علي وغيرهم، يقول البعض: أنها تركية، ويقال بأنها أرمينية، وهناك من يؤكد بأنها شركسية وتظل شجرة الدر كما يقال: صامتة لا تفصح بشيء عن حياتها الأولى، لكن بعض المؤرخين صنعوا لها تاريخًا وزعموا أنها من شجرة عريقة الأصول فأباها هو السلطان (أزبك البهلوان) ملك تبريز من بلاد العجم وأمها هي الأميرة السلجوقية الشهيرة (فاطمة خاتون)، وأن والدها الذي لم يكد يسمع باقتراب المغول من بلاده حتى ترك كل شيء وتخلى عن شعبه وأسرته ومضى مبايعًا طائعًا

ذليلاً للمغول يقدم لهم خدماته ومساعداته في تدمير الممالك الإسلامية، لكن (فاطمة خاتون) كانت أما عظيمة في موقفها وإرادتها وتصرفها، فما أن علمت بجريمة زوجها حتى أعلنت أنها طالق منه وحملت طفلتها ورحلت إلى بلاد السلطان جلال الدين أخر ملوك خوارزم وطلبت منه أن يتزوجها، وأخذت تشد أزره حتى يصمد أمام جحافل المغول الذين هجموا على بلاد الاسلام كالعاصفة العاتية، وكانت قوتهم الشرسة لا يصمد أمامها شيء، فاكتسحت ممالك خوارزم وفر جلال الدين ومات في جزيرة معزولة في بحر قزوين، وتلحق به فاطمة خاتون التي قامت برسالتها كزوجة أحسن قيام، ولكن الطفلة شجرة الدر تضيع في قلب الأحداث، ليلتقطها النخاسون ويبيعونها من يد ليد لتقع في حوزة الأمير الأيوبي الذي كان يعيش منفيًا في كيفا وتصير بعد ذلك وبعد موت زوجها في المنصورة، المرأة التي حكمت مصر وكان لها ذكرها في صراع الإسلام مع أعدائه، ولو أن هذه القصة حقيقية، فإنني أجزم أن هذا الثبات، وهذه الحكمة، وهذه الحنكة في إدارة الأزمة ورباطة الجأش التي تحلت بها شجرة الدر، ما استمدتها إلا من هذه الأم الصامدة الحرة الأمينة التي قامت بواجبها تجاه أمتها ودينها وشعبها، فرفضت الخيانة وتبرأت من زوجها، ولم نلمح فيها أو عليها أي مظهر

من مظاهر الضعف التي قد تعتري كثيرًا من النساء، وإنما كانت قوية جسورة في نصرة مبادئها وعقيدتها.

لقد عرفت طريقها بعيدًا عن زوجها الخائن الخانع الذليل، فكانت أعظم منه وأقوى شكيمة، تدفع زوجها للنضال وتقف وراءه تحثه على الجهاد حتى كانت الأحداث أكبر من الجميع، ولعل ابنتها قد ورثت شيئًا من هذه الصفات القوية التي استطاعت بها أن تكون المقربة والمحظية من سيدها السلطان، والتي أهلتها أن تقود البلاد وتديرها بكفاءة في أشد لحظاتها حرجًا وشدة.

الأم التي يلومها العالم

«تيموجين بن يسوكاي بهادر» أو ما نعرفه باسم جنكيز خان والذي ولد بالتقريب سنة ١١٦٢م ، وكان والده رئيسًا لقبيلة مغولية تدعى «قيات»، وسمى ولده «تيموجين» ومعناه «الفولاز القوي» تيمنًا بمولده في يوم انتصاره على إحدى القبائل التي كان يتنازع معها، وتمكن من القضاء على زعيمهم الذي يحمل نفس الاسم «تيموجين»، وحينما بلغ ١٣ عامًا يرحل الأب تاركًا وراءه تركة ثقيلة وحملا كبيرًا، إذ سرعان ما انفض عن ولده حلفاء أبيه وتولى عنه الأنصار والأتباع، وتخلت عنه قبيلته وأغراهم بذلك صغر سنه، ورفضوا الدخول في طاعته مستخفين به، فعلوا ذلك رغم أنه الوريث الشرعي لأبيه والتفّت حول زعيم آخر، ووصل الأمر أنهم أسروا «تيموجين» نفسه، وبذلك

فقدت الأسرة الجاه والسلطان، وهامت في الأرض تعيش حياة قاسية، وتذوق مرارة الجوع والفقر والحرمان، بعد أن صارت مطاردة من الأعداء، وهكذا يواجه الفتى الناشئ أقسى الظروف في بداية حياته.

وأمام هذا الانكسار الكبير والحياة المليئة بالصعوبات، قامت الأم التي ترملت بدور محوري وهام في حياة ولدها، فهي التي اهتمت به ورعته ووجهته وأعانته وإخوته الأربعة، ليواجهوا صعاب الحياة ويقفوا على أقدامهم من جديد، ويحققوا أهدافهم الطموحة في الحياة، لقد جمعت شمل الأسرة المستضعفة، وحثت أبناءها ومنهم تيموجين على الصبر والكفاح، حتى صاروا شبابًا أقوياء خاصة تيموجين الذي كان يتمتع ببنيان قوي جعله المصارع الأول بين أقرانه، وبدأ يهتم بمزارع أسرته، ونجح تجاريًا وأنشأ علاقات قوية مع بعض القبائل، واستطاع العودة لقبيلته وإخضاعها لسلطانه وهو دون العشرين، وبدأ العدوان على مناطق مجاورة من منغوليا، وانتقل من زحف إلى زحف ومن نصر إلى نصر، حتى وحد منغوليا كلها تحت سلطانه، ثم انتقل بعد ذلك لمناوءة الدول المجاورة، فاصطدم بالصين وحاربها وانتصر عليها واعتدى على الدولة الخوارزمية بـ (٢٥٠,٠٠٠)

مقاتل ومليون حصان، وتحركت جيوشه واستولت على بلاد ما وراء النهر، وكان يبيد البلدان ويدمرها ويحصد آلاف الأرواح ويرتكب أعمالاً انتقامية متوحشة لم يسبق لها مثيل في التاريخ مما أحدث فزعًا كبيرًا في أنحاء العالم، واستطاع جنكيز خان أن يخلد اسمه في التاريخ كرجل بدأ من الصفر إلى القمة، بفضل هذه الأم التي شجعت ووجهت وحفزت وأعانت، وأوقفته وإخوته على أقدامهم من جديد بعد ما أصابهم من انتكاسة كبيرة كادوا في ظلالها يعيشون مشردين ضائعين، لقد حثتهم على العمل والطموح والجد والاجتهاد واستعادة ملكهم الضائع وزعامتهم المسلوبة، فكان لها ما أرادت وأكثر بكثير، ورغم دورها الإيجابي القوي في حياة ولدها، إلا أن العالم لا ينسى لها أنها قدمت له أبشع رجل عرفه التاريخ قسوة ودموية.!

مسيح القرن العشرين

نذر حياته مناضلاً من أجل حرية بلاده، واستطاع بالطرق السلمية أن يواجه الاحتلال الغشوم، وأن يوقظ شعلة الحرية في نفوس الهنود، ولا تزال إلى اليوم دروسه وحكمه حية في ذاكرة الأمم قاطبة.

لقد دعا غاندي إلى العصيان المدني وحث شعبه على التخلص من تبعية الاستعمار البريطاني من خلال رفضه لكل منتجاته، حتى أنه كان يرفض الصوف البريطاني ويغزل ثيابه القطنية بيديه، وشجع أبناء وطنه على أن يفعلوا ما يفعل ويلبسوا ما ينسجون، وكان عمله الرائع عندما احتكر الإنجليز الملح فقاد الآلاف في مسيرات سلمية باتجاه البحر يمتاحون ماءه للحصول على ما يريدون منه بعيدًا عن قبضة المستعمر اللعين. كما طالب الهنود

بعدم تقليد الغرب في طرقه الحياتية والفكرية، والتعلق بثقافته الأصيلة والحفاظ على هويتهم. وسُجن العديد من المرات، ولجأ إلى الاضراب عن الطعام تعبيرًا عن رفضه للاستعمار وأساليبه.

كان غصة في حلق الاستعمار حين قلّب عليه الضعفاء وسلحهم بروح قوية حاربت ظلمه وقاومت طمعه،كانت لحظة تحول كبيرة هي التي صنعت هذا الزعيم الذي لا يظل ماثلاً في وعي الهنود والعالم كله وهي لحظة رحيل أمه التي كانت كل حياته، وأهم ما في حياته، لقد مات والد غاندي وهو في السابعة عشر ،وأرادت أسرته أن ترسله لدراسة القانون لكنها تخشى عليه من عادات الإنجليز التي تخالف عادات قومه وعقيدتهم، وأخبرهم الكاهن أن يأخذوا عليه عهدًا ونذرًا باجتناب المحرمات في بلاد الغربة، فأقسم بين أيديهم ألا يقاربن امرأة ولا يدمنّ خمراً، ولا يأكلن لحمًا أو طعامًا محرمًا، وتموت الأم أثناء بعثته التعليمية، وتخفي عليه أسرته هذا الخبر المفجع حتى لا تتعثر دراسته لما يعلمون من شدة تعلقه بها، وحينما علم كانت صدمة عظيمة أحدثت تحولاً كبيرًا في حياته، إذ دفعه وفاؤه لها أن يحافظ على نذرها ويوفي به ويضاعف من أمره، لكن من هذه المرأة التي تأثر بها هذا الزعيم إلى هذا الحد؟! إننا نريد أن نقترب منها ونتعرف

إليها أكثر فأكثر، لقد كانت (بوتليباي) أم غاندى امرأة بسيطة عطوفة تكرس حياتها لأمرين هامين هما عائلتها ودينها، وعائلة غاندي كانت ضخمة كبيرة العدد يعيش أفرادها في منزل واحد وتقوم هذه الأم بإطعامهم جميعًا ورعايتهم، وحينما يمرض أحدهم تسهر عليه ولا تتركه حتى يشفى لأنها كانت تشعر أن حياتها موهوبة للمرض، كانت تعمل بجد طوال اليوم، وكانت كثيرة الصلاة والدعاء، تقضي حياتها في التعبد وعمل الخير، وكانت في حالة صوم شبه دائم حتى توفر نصف الطعام لأبنائها، حتى انفطر قلب ولدها غاندي عليها من مشاهد تقشفها، وكانت تغمره بالحب والحنان والرعاية، وكان أهم ما علمته في صغره أن لا يكذب، فبقي يقول الصدق حتى نهاية عمره مهما كلفه ذلك من مشقة وعناء، «ومن طرائف ما يحكى في ذلك أنها لم تكن تتناول الطعام حتى تسمع صوت الوقواق، وذات يوم غاب الوقواق، فلم تسمع له صوتًا، وحينما سمع غاندي ذلك وقف وراء المنزل وحاول تقليد الوقواق، ولكن الأم حزنت كثيرًا لأنها عرفت أن ولدها يكذب، فصاحت: «يا إلهي، أي جرم ارتكبته لتهبني ولدا كذوبًا». وحين علم غاندي أنه سبب حزن أمه أقسم ألا يكذب، كانت تهتم به أكثر من نفسها، وأعطته كثيرًا من حنانها وعطفها، وتضرب نموذجًا مثاليًا في حب الأم

الذي يتسامى فوق كل شيء.

وحين كانت الهند تضم طبقة اجتماعية يعرف أصحابها بـ «المنبوذين» حيث يعتقد الهندوس بوجوب عدم لمسهم لأي سبب كان، كانت أم غاندي ترفض هذا المبدأ، وكلما مرت بأحدهم لمسته ودعته لتنظيف نفسه وتلاوة الصلوات، وكان إيمانها عميقًا بهذه الفكرة ، وعلى دربها سار غاندي فظل على هذا المبدأ طول حياته، وكان لا يتقبل فكرة المنبوذين، وحاول أن يساعدهم ويعطف عليهم.!

إن أماً بهذه الإنسانية كانت كفيلة أن يتأثر بها ولدها ويتشرب أخلاقها، وتكون سببًا في تحول حياته وإحداث صدمة عنيفة في نفسه حينما علم برحيلها.

لا تهنئوني وهنئوا أمي

(أبراهام لينكولن)..

نشأ (أبراهام لينكولن) في أحد مزارع (هودجن فيل) بولاية (كنتاكي).

وفي سن التاسعة رحلت أمه عن الحياة.

وتزوج أبوه الذي كان فقيرًا معدمًا، لم يستطع تحمل نفقته الدراسية التي قضى منها عامًا.

فيخرج لينكولن منها ويعمل في إحدى المزارع القريبة كي يساعد والده الفقير.!

ورغم هذه العوائق والعمل من أجل تحصيل قوت الأسرة، كان (أبراهام لينكون) محبًا للتعلم والثقافة..

كما كان نهمًا في القراءة، يقرأ كل ما يقع تحت يديه من الكتب

والمراجع الكبيرة..

وتثقف في القانون إلى أن أصبح محاميًا وحظي بعضوية نقابة المحامين، ودخل معترك السياسة، ووضع منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية هدفًا يسعى إلى تحقيقه.

كان أبرز ما يُميزه هو كيفية تعامله مع الفشل الذي مني به كثيرًا، فقد كان يرى أن الطريقة المثلى هي أن تبدأ من جديد.

كانت هناك حياة حافلة بتجارب فاشلة وأحداث حزينة في حياة لينكولن قبل تحقيق الإنجاز العظيم.

إن هذا الرجل.. كان يوقد في الليل قطعًا من الخشب يتدفأ بنارها ويقرأ على نوره.!

وفي الوقت الذي كانت تتوفر المكتبات للكثيرين يأخذون منها ما يشاؤون، كان صاحبنا في بعض الأحيان يسير أميالاً ليستعير كتابًا يقرؤه، لأنه فقير لا قدرة لديه على امتلاك الكتب.!

ونقف هنا وقفتنا المعهودة لنتساءل:

من الذي غرس في قلبه حب القراءة والكتاب اللذان كان لهما الفضل في ثقافته ونبوغه ووصوله إلى ما وصل؟

إنها أمه تلك التي ماتت وله من العمر عشر سنوات..

«فقد كانت قبل وفاتها تُعنى به العناية كلها، فاختارت له من الكتب الكتاب المقدس، وكتاباً عن حياة جورج واشنطن، فقرأهما وأعاد قراءتهما مرارًا حتى كاد يحفظهما»

وبعد هذه المحطة كانت النقلة والانطلاقة لعشق القراءة والمعرفة، وكان هذا التوجيه اللطيف من الأم ،بمثابة النواة التي انطلقت منها شخصية هذا النابه الكبير.

قال لينكولن يومًا لمهنئيه بمنصب من مناصب الدنيا:

«لا تهنئوني، وهنئوا أمي فهي التي رفعتني إلى مقامي هذا.!»

أم غير عادية

يقول أنيس منصور:

"لا أعرف كيف أن شابًا عمره (١٥) سنة، صافح الرئيس كينيدي في البيت الأبيض، فأحس فجأة بأنه سيكون رئيسًا لأمريكا يومًا ما ، هذا الشاب الصغير هو (بيل كلينتون) الذي أصبح بالفعل رئيسًا لأمريكا في التسعينات عندما عاد إلى أمه (فرجينيا كلينتون) التي كان عمرها يناهز الـ (٧٠) عامًا، ونقل إليها شعوره قالت الأم:

هذه أمنيتي وأنت في السابعة من عمرك ! ولما سألها: وما الذي جعلك تؤمنين بذلك؟

قالت الأم:

لا يوجد سبب واضح، ولكنه صوت في أعماقي يقول لي:

ابنك سيد البيت الأبيض.!

وإذا كانت والدة (كلينتون) قد حفزته بكلامها وأمنياتها؛ فإن التاريخ الأمريكي لم يغفل عن أم نظيره (كارتر) التي حفزت ولدها وأثرت فيه بأخلاقها وسلوكها ووعيها وتدينها وإنسانياتها"

ففي عام ٢٠٠٨م أصدر الرئيس السابق (جيمي كارتر) كتابًا تحت عنوان (أم غير عادية) حاول من خلاله رصد ما تعلمته أمه من قيم وما غرسته فيه من مثل راقية ومبادئ سامية، حيث يقول في هذا الكتاب: إن أمه علمته حب الناس رغم اختلاف ألوانهم وحب الله، وقال في كتاب آخر: لقد غرست في والدتي ربما أكثر من أي شخص آخر حب الله والإخلاص في ذلك وأثرت بما علمتني إياه في كل حياتي، فلم أترك الصلاة سرًا أو جهرًا، ولم أصل فقط خلال الأزمات، بل عندما كنت في البيت الأبيض ،كنت أصلي مرات كثيرة أثناء اليوم.

لقد استطاعت هذه الأم بما كانت تملك من قيم إنسانية أن تؤثر في صغيرها، فهي حقًا كما قال عنها: لم تكن أمًا عادية في ذلك الوقت وفي ذلك المحيط في تصرفاتها وأخلاقها وطباعها ونظرتها الإنسانية التي خالفت بها مجتمع الجنوب.

لقد ولد (جيمي كارتر) عام ١٩٢٤م، في بلدة بلينز بولاية جورجيا في الجنوب الأمريكي، وكانت عائلته تعمل في زراعة القطن، ويستخدمون العمال الذنوج في الزراعة، ورغم أن الحكومة الفيدرالية في ذلك الوقت ألغت تجارة الرقيق، إلا أنهم عارضوا ذلك بشدة وشارك أحد أجداده في الحرب الأهلية عام ١٨٦٠م مع قوات الجنوب الأمريكي الحكومية الفيدرالية..

أما عائلة أمه (ليليان كارتر) ..فكان لها شأن آخر، فقد اعتاد جده لأمه أن يختلط بالزنوج ويعاملهم كزبائن، وليسوا كعبيد أو مزارعين مثلما تعاملهم عائلة كارتر..

وورثت أمه هذه المعاملة الحسنة والنظرة الانسانية، وظهر عليها ذلك منذ صغرها، وترسخت فيها هذه النزعة فيما بعد، وعندما كان سنها ٢٠ سنة تطوعت للعمل كممرضة في القوات

الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى، واختلطت بحكم وظيفتها كممرضة مع مرضى السود وتفوقت على والدها وألغت التفرقة العنصرية داخل المنزل..

وسمحت للخدم والخادمات السود، بأن يدخلوا المنزل من الباب الأمامي لا من الباب الخلفي، وشجعتهم ليتحدثوا مع أفراد العائلة حول فنجان قهوة مثلاً .

فعلت ليليان كل ذلك حتى قبل أن يتزوجها (ايريل كارتر) والد جيمي، وواصلت هذه السيدة سيرتها الليبرالية عندما انتقلت لبيت زوجها الذي لم يتحمس لأفعالها في البداية، وفي مذكراتها التي نشرتها هذه الأم كتبت تقول: لم يتعود اريل على أن يأتي إلى المنزل من العمل ويرى زنوجًا يجلسون ويشربون قهوة مع أي امرأة بيضاء ناهيك عن أن تكون زوجته.

وأضافت: أعتقد أن ايريل كان أول رجل أبيض يقبل ذلك في كل ولايات الجنوب، وكانت ولايات الجنوب مختلفة في هذه الأيام»[1]

(١)- الشرق الاوسط 19 اغسطس 2015م - رقم العدد ١٣٤١٣.

الأم في حياة المجاهدين

لمثل هذا اليوم أعددته

يقول ابنها عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه وعن أمه: شهدت أحدًا مع رسول ﷺ فلما تفرق الناس عنه، دنوت منه أنا وأمي نذب عنه. فقال: «ابن أم عمارة»؟ قلت: نعم قال: «ارم»، فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس فأصيبت عين الفرس حتى وقع هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة حتى نضدت عليه منها وقرًا، والنبي ﷺ ينظر ويبتسم ونظر جرح أمي على عاتقها، فقال: «أمك أمك، اعصب جرحها: بارك الله عليكم من أهل بيت مقام أمك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت، ومقام ربيبك — يعني زوج أمك – خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت». قالت: ادع الله أن نرافقك في الجنة فقال: «اللهم

اجعلهم رفقائي في الجنة»، فقالت: ما أبالى ما أصابني من الدنيا.

هكذا كانت الأم تشتاق للجنة، ومرافقة الحبيب ﷺ الذي دافعت عنه يوم أن فر الجميع من حوله، إنها تصد المشركين عنه يساعدها ولدها عبد الله، فنالت وولدها خير الجزاء بل أرفع الجزاء، ونالوا شرف الصحبة والرفقة في الدنيا والآخرة فأنعم بها من أم مجاهدة. وإذا كنا نتحدث عن فداء علي بن أبي طالب لابن عمه النبي الكريم يوم الهجرة ونستشهد به كأعظم مثال على التضحية، ألا يكون موقف نسيبة مضاهيا له وموازيا لدرجته؟ إن هذه الام الباسلة التي رافقت ولدها في ميدان الكفاح والدفاع عن صاحب الرسالة ﷺ، قدر لها أن تكون بطلة في ميدان الصبر والاحتساب، لأنها كانت أم الأبطال، فهذا ولدها الثاني حبيب بن زيد الأنصاري يضرب أروع الأمثلة في البطولة وتحدي الطغيان حينما أرسله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب برسالة يزجره فيها عن غيه وكفره وارتداده، فماذا فعل الطاغية الكذاب مسلمة وكيف صب غضبه على عبدالله وكيف واجه عبدالله كيده وغروره؟ إن مسيلمة ما كاد يقف على ما جاء في الرسالة حتى بدا الشر في وجهه، وأمر بحبيب فقيدوه، فلما

كان من الغد جلس الكذاب في مجلسه وأمر أتباعه أن يحضروه، ووقف البطل ثابت القامة، مرفوع الهامة شامخ الأنف أمام جموع مسيلمة المرتدة الكافرة، وبدأ مشهد التحدي العظيم أو الثبات العظيم فالتفت الطاغية الكذاب إليه وقال: أتشهد أن محمد رسول الله؟ فقال: نعم أشهد أن محمداً رسول الله فتميز مسيلمة غيظاً وقال: وتشهد أني رسول الله: فقال حبيب ساخرًا: إن في أذني صممًا مما تقول: فحنق عليه مسيلمة وقال لجلاده: اقطع قطعة من جسده، فأهوى الجلاد على حبيب بسيفه وقطع قطعةً من جسده، ثم أعاد عليه السؤال: أتشهد أن محمدًا رسول الله قال: نعم، قال: وتشهد أني رسول الله قال: إن في أذني صممًا مما تقول فأمر الطاغية بقطع قطعة أخرى من جسده والناس ينظرون بدهشة لثبات البطل وصلابته في وجه الكذب وطغيانه، وهكذا مضى مسيلمة يسأل والجلاد يقطع وحبيب يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، حتى صار ما يقرب من نصف جسده قطعًا مقطعة وفاضت روحه الطاهرة لربه شهيدًا مجاهدًا ثابتًا، وجاء الخبر ونعى الناعي حبيبًا إلى أمه نسيبة، فما زادت على أن قالت صابرة متماسكة: من أجل مثل هذا الموقف أعددته وعند الله احتسبته لقد بايع الرسول ليلة العقبة صغيرًا، ووفى له اليوم كبيراً، ولئن مكنني الله من مسيلمة لأجعلن بناته يلطمن الخدود

عليه. ولم تبطئ الأيام منيتها حتى جاءت اللحظة التي تمنتها نسيبة؛ فإذا بمؤذن أبي بكر في المدينة ينادي أن حيَّ على الجهاد لقتال المتنبئ الكذاب مسيلمة، فمضى المسلمون يحثون الخطى إلى لقائه، وكان في الجيش أم عمارة المجاهدة الباسلة وولدها عبدالله بن زيد، ولما التقى الجمعان وحمي وطيس المعركة، كان يترصد لمسيلمة نفر من المسلمين وعلى رأسهم أمّ عُمارة التي تريد أن تثأر لابنها الشهيد، ووحشي بن حرب قاتلُ حمزة يوم (أحد)، فقد كان يريد أن يقتل شر الناس وهو مؤمن، بعد أن قتل أحد خيار الناس وهو مشرك.

لم تستطع أمُّ عُمارة أن تصل إلى مسيلمة بعد أن قُطعت يدها في المعركة، وأثخنتها الجراح، لكن وحشي بن حرب وأبا دجانة صاحب سيف رسول ﷺ وصلا إلى مسيلمة وضرباه عن يدٍ واحدةٍ، فقد طعنه وحشي بالحربة، وضربه أبو دجانة بالسيف فخر صريعًا في طرفة عين. وعادت أم عُمارة بعد (اليمامة) إلى المدينة بيدٍ واحده ومعها ابنها الوحيد، أما يدها الأخرى فقد احتسبتها عند ﷺ كما احتسبت من قبل ولدها الشهيد.

وإذا كان يبهرنا ثبات حبيب على هذا البلاء الجبار، فإنه سرعان ما يهدأ انبهارنا حينما نعلم أن هذه هي أمه صاحبة هذا اليقين

وهذا الإيمان. لقد كنا نسمع عن الأم الرومية التي كانت تقول لولدها الخارج للحرب: عد بالنصر أو محمولاً على درعك، كنا نستعظم نفس هذه الأم، ولكنها تضاءلت أمام أم عمارة فهي فوق تحريض أولادها على الجهاد كانت تجاهد بنفسها وجسدها، فما أروعها من بطلة.

جبنت ولم تشهد فوارس خيبر

إنها (بركة) أو أم أيمن الحبشية مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته التي ورثها من أبيه، وكانت من المهاجرات الأول، عاشت رضي الله عنها مراحل النبوة كلها، وعاصرت أحداثها بكل آلامها وجراحها، وبشرياتها وسرورها. تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن، وعرفت أم أيمن رسول الله ﷺ طفلاً صغيراً، ثم شابًا صادقًا أمينًا، ثم نبيًا مُرسلا، أعتقها بعد زاوجه من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ثم تزوجت وأنجبت أيمن، وكانت من السابقات إلى الإسلام، وأسلمت بقلبها وجوارحها، وظل زوجها على كفره ففرّق الإسلام بينهما، ورغم كِبَر سنها إلا أنها كانت تشارك في الجهاد مع رسول الله ﷺ، وكان لها دورها البطولي المشهود حبًا في الله ورسوله، فمن خلال أمومتها

كانت تحث ولديها (أيمن وأسامة) على نصرة الإسلام وتزجّ بهما في ملاحم القتال، ففي غزوة أُحد خرجت لمداواة الجرحى وسقاية المجاهدين، وعندما خالف الرُّماة أمر رسول الله ﷺ، وقتل المشركون عددًا كبيرًا من الصحابة؛ وانهزم البعض الآخر، قامت أم أيمن تحثو في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغزل به، وهلم سيفك، ثم اتجهت نحو رسول الله ﷺ تستطلع أخباره في نسوة معها حتى اطمأنت على سلامته.

وفي غزوة خيبر خرجت لتقدم ما تستطيع أن تقدمه خدمة لدين الله جل وعلا، ولكن ولدها أيمن تخلف عن غزوة خيبر لعذرٍ منعه، فظنت أنه جَبُن فعيّرتهُ بالجبن والخوف ولم تعرف أنه لم يستطع الخروج لمرض فرسه، وقدر لحسان بن ثابت أن يسجل هذه الملحة في شعره الرصين الذي يعزر فيه ولدها فيقول:

على حين قالت لأيمن أمه ... جبنت ولم تشهد فوارس خيبر
وأيمن لم يجبن ولكن مهره ... أضر به شرب المديد المخمّر
فلولا الذي كان من أمر مهره ... لقاتل فيها فارساً أعسر
ولكنه قد صده فعل مهره ... وما كان منه عنده غير أيسر

قالت هذا لولدها وهو الذي كانت له هجرة وجهادًا وشهد المشاهد مع الرسول ﷺ حتى استشهد في حُنين، ولكنها لا

تطيق أن ترى من ولدها ذرة تخاذل عن نصرة الدين والوقوف بجوار الرسول ﷺ في ساحة الوغى، وتمر الأيام ويأتي يوم حنين وتأتي ساعة الابتلاء، وتخرج أم أيمن كعادتها لتنصر الإسلام وتلبي داعي الجهاد بما تملكه ولو بشربة ماء تقدمها في سبيل الله، ويخرج معها ولداها أسامة بن زيد وأيمن رضي الله عنهما للذود عن حياض الإسلام والدفاع عن رسول الله ﷺ، وكان أيمن رضي الله عنه ممن ثبت مع النبي ﷺ في يوم حُنين، وضرب المثل في الجرأة والشجاعة والإقدام حتى سقط شهيدا في أرض الشرف والجهاد، وتعلم باستشهاده فتصبر وتحتسب وتسعد بوروده منازل الشهداء ونيله الغاية التي دفعته لها وتمنتها لمصيره.

وصية الخنساء

ومع مثل آخر من الأمهات الباسلات التي يسطر التاريخ ذكرها بحروف من نور، بل صارت في أمة المسلمين أورع مثال في الثبات والصبر. لقد ردد الأدباء والشعراء كلماتها الرصينة، ومراثيها في أحب الناس إليها أخوها وبنيها الشهداء، مراثٍ تعج بالحزن والأسى وتطبع في ضمير المتأملين كيف كانت الأم تجود بفلذة كبدها من أجل هذا الدين والرسالة والعقيدة والمبادئ؟، تأملي أيتها الأم المسلمة كيف كانت الخنساء توصي بنيها الأربعة وهم ذاهبون للقادسية في صحبة بطل الأبطال سعد بن أبي وقاص؟ لقد كانت تقول لهم وتوصيهم بما يلي:

«يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما

هجنت حسبكم، وما غيرت نسبكم، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، اصبروا وصابروا، ورابطوا واتقوا اللَّهَ لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت نارًا على أوراقها، فيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

وذهب الأشاوس الأبرار، وصدورهم تتأجج عزيمة ومضاءًا بنصيحة أمهم، إلى أن ارتفعوا في ساحة الوغى شهداء، وانسكب الدم الزكي على الأرض شاهدًا على عظمة الأم التي دفعت بكل بنيها من أجل الإسلام، ولم تُبق منهم واحدًا ليكون سلوةً لها لو مات إخوته، ما أكرمها وما أشد يقينها، يوم أن وافاها النعاة بخبرهم، إنها لم تزد على أن قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من اللَّهَ أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة»[1]

يقول شيخنا الغزالي رحمه الله معلقًا على بطولة الخنساء: «يا عجبًا! ماذا صنع الإيمان بفؤاد هذه المرأة البكاءة؟ لقد كانت تبكى في جاهليتها عالية النشيج لمصرع أخيها، تبكى وتستبكى وتذكر (صخراً) وفى قلبها حرقة فتقول:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل مغيب شمس

(١)- الإصابة (٦٦/٨-٦٧) رقم ١٣١٦.

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسى

وها قد غربت الشمس بأبنائها الأربعة فما ثار لها جزع، لأنها تعلم أن شمسهم توشك على الشروق في آفاق الفردوس الأعلى، وأنهم سوف يقدمونها على بوارق أنهار الجنة، وهى تختال بينهم وتفاخر باستشهادهم.

إن رائدات النهضة النسائية في بلادنا، أقصر باعًا وأنزل رتبة من أن يفقهن هذا المثل، فإحداهن تكره أن تكون أمًا لأربعة، ولو فرضت عليها الأقدار أمومة أربعة ما أحسنت حضانتهم وتربيتهم وتوصيتهم حتى يبلغوا هذه الذروة، إنها تريد أن تكون رجلة تتولى عملاً من هذه الأعمال التي تليق بالجنس الخشن ،ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها بشيء منه، وعندما يقال لها: تستطيعين صناعة المستقبل كما تبغين عندما تحسنين تبعل الرجل وتنشئة الذرية الوافدة يتورم أنفها ضيقًا وغيظًا.»[1]

وهذا مثل آخر يشابه الخنساء في الجلد والصبر العظيم فعن جويرية بن أسماء عن عمه: أن إخوة ثلاثة شهدوا يوم (تستر) فاستشهدوا، فخرجت أمهم يومًا إلى السوق لبعض شأنها،

(١)- ركائز الإيمان بين العقل والقلب .للشيخ/ محمد الغزالي.

فتلقاها رجل حضر «تستر» فعرفته، فسألته عن أمور بنيها، فقال: «استشهدوا»، فقالت: «مقبلين أو مدبرين؟» قال: «مقبلين»، قالت: «الحمد لله نالوا الفوز، وحاطوا الذمار، بنفسي هم وأبى وأمي»

ومثل هذه الأم العظيمة لم يرعها أن يستشهد بنوها، بقدر ما كانت تخشى إدبارهم في المعركة، ومن هنا سألت القادمين: أمقبلين أم مدبرين؟ فلله درها من أم عظيمة.

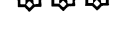

الحق أقوى من العاطفة

هذه هي الأم المسلمة؛ تزرع في نفوس أبنائها الثبات على الحق، والتمسك بالمبادئ حتى ولو كان في ذلك هلاكهم، ناهيك عن أمٍ لا هم لها في الحياة ولا غاية، إلا أن يخرج أولادها أغنياء أثرياء، أما المبادئ والقيم والفداء في سبيل الحق، فلا تأخذ شيئاً من اهتماماتها وفكرها، وإليك تلك الملحمة الرائعة بين أمٍ وولدها، أم تطوى عواطفها في سبيل الحق، وولد كادت نفسه أن تلين لما أعطاه أعداؤه من الدنيا، إنها ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق وزوج الزبير بن العوام رضي الله عنهم الجميع، ومثل أسماء لا يمكن أبدًا أن تلد إلا الأبطال والأفذاذ، لقد كانت أمًا لعبد الله بن الزبير، الذي صارع الأمويين، ولم تبال نفسه بجمعهم وحصارهم، أو ينهد عزمه فيستسلم ويرضى بالذل والهوان. لقد ربت أسماء ولدها على نصرة الحق حتى ولو كلفه

ذلك حياته، انظر إليها وقد جاءها ولدها شاكيًا مستشيرًا بعد أن حاصروه، وتخلى عنه الجميع فقال: يا أماه؛ خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من ساعة، والقوم يعطونني ما أردت الدنيا، فما قولك؟ فقالت: أنت والله يا بنى أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنك على حقٍ وإليه تدعو، فأمض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك، يتلعب بها غلمان بنى أميه، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابى ضعفت، فليس هذا من فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن، والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة بالسوط في ذل، قال: إنى أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بى. قالت: أن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها، فدنا منها وقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتنى بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإنى مقتول من يومى هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمى لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم

يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تذكية مني لنفسي أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني. فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا، إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي جرح، حتى أنظر إلام يصير أمرك. قال: يا أماه جزاك الله خيرًا، فلا تدعين الدعاء لي قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطلٍ فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم ذلك القيام في الليل الطويل، ،وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين. ثم ودعها وخرج.

لم تكن أسماء غافلة عن قوة بني أمية وبطشهم، ولم تكن تريد أن يتسيد ولدها في الدنيا ليصبح الرجل الأول فيها، ولم تسيطر عليها عاطفة الأمومة لتمنع ولدها أن يمضي لما فيه حتفه، لقد ربته على العزة والإيمان، فهو حفيد أبي بكر صفي رسول الله ﷺ، وابن الزبير حواري النبي ﷺ وابن عمته. لك الله يا أسماء، تدفعين بولدك ليكون فداءً لمبادئه وتجعلين شعارك «والله لضربة بالسيف في عز، أحب من ضربة بالسوط في ذل». ومن أين

جاء عبد ﷺ بقوله: «ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني للخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة».

لقد جاءته هذه المبادئ من تربية أمه أسماء، ومن عزة أسماء، ومن صلاح أسماء، فهل لأمهات المسلمين أن يعلمن أولادهن، ويربينهن على نصرة الحق، والغضب لله، والانتصار للمبادئ كما علمت أسماء. إن ذلك لا يكون إلا على يد امرأة صالحة، ليخرج في المسلمين مثل عبد ﷺ ابن الزبير.

يقول شيخنا القرضاوي: «والأم التي عنى بها الإسلام كل هذه العناية، عليها واجب أن تحسن تربية أبنائها فتغرس فيهم الفضائل، وتبغضهم في الرذائل، وتعودهم طاعة ﷺ، وتشجعهم على نصرة الحق، ولا تثبطهم عن الجهاد استجابة لعاطفة الأمومة في صدرها، بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة»[1].وهكذا كانت أسماء رضي ﷺ عنها.

❁❁❁

(١)- مركز المرأة في الحياة الإسلامية للقرضاوي.

تخطب لولدها

تأملي يا أم هذا الزمان، هذا المثل الرائع للأم المسلمة قديمًا، حين وهبت ولدها للحور العين. إنها أم إبراهيم الهاشمية، والتي كانت من النساء العابدات بالبصرة، اسمع هنا لخبرها.

أغار العدو على ثغرٍ الإسلام، فانتدب الناس للجهاد، وقام عبد الواحد بن زيد البصري في الناس خطيبًا، فحضهم على الجهاد، وكانت أم إبراهيم حاضرة في مجلسه، وتمادى عبد الواحد على كلامه، ثم وصف الحور العين، وذكر ما قيل فيهن، وأنشد في وصفهن:

غادة ذات دلال ومرح ... يجد الناعت فيها ما اقترح

خلقت من كل شيء حسن ... طيب فالليت فيها مطرح

زانها الله بوجه جمعت ... فيه أوصاف غريبات الملح

وبعين كحلها من غنجها ... وبخد مسكه فيه رشح
ناعم تجري على صفحته ... نضرة الملك ولألاء الفرح
أترى خاطبها يسمعهـا ... إذ تدير الكأس طورا والقدح
في رياض مونق نرجسه ... كلما هب له الريح نفح
وهي تدعوه بود صادق ... ملىء القلب به حتى طفح
يا حبيبا لست أهوى غيره ... بالخواتيم يتـــم المفتتح
لا تكونن كمن جد إلى ... منتهى حاجته ثم جمح
لا فما يخطب مثلي من سها ... إنما يخطب مثلي من ألح

قال: فماج الناس بعضهم في بعض، واضطرب المجلس، فوثبت أم إبراهيم من وسط الناس، وقالت لعبد الواحد: «يا أبا عبيد، ألست تعرف ولدى إبراهيم، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه إلى بناتهم، وأنا أضربه عليهم، فقد والله أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عروسًا لولدي، فكرر ما ذكرت من حسنها وجمالها، فأخذ عبد الواحد في وصف حوراء، ثم أنشد:

تولد نور النور من نور وجهها
فمازح طيب الطيب من خالص العطر
فلو وطئت بالنعل منها على الحصى

ولو شئت عقد الخصر منها عقدته
ولو تفلت في البحر شهد رضابها
يكاد اختلاس اللحظ يجرح خدها
لأعشبت الأقطار من غير ما قطر
كغصن من الريحان ذى ورق خضر
لطاب لأهل البر شرب من البحر
بجارح وهم القلب من خارج الستر

فاضطرب الناس أكثر، فوثبت أم إبراهيم، وقالت لعبد الواحد: «يا أبا عبيد، قد والله أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عروسًا لولدي، فهل لك أن تزوجه منها هذه الساعة، وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار، ويخرج معك في هذه الغزوة، فلعل اللَّهَ يرزقه الشهادة، فيكون شفيعًا لي ولأبيه في القيامة؟»، فقال لها عبد الواحد: «لئن فعلت لتفوزن أنت وولدك، وأبو ولدك فوزًا عظيمًا»، ثم نادت ولدها: «إبراهيم»، فوثب من وسط الناس، وقال لها: «**لبيك أماه**»، قالت: «أي بني، أرضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك في سبيله، وترك العود في الذنوب؟»، فقال الفتى: «إي والله يا أماه، رضيت أي رضاً»، فقالت: «اللهم إني

أشهدك أني زوجت ولدى هذا من هذه الجارية، ببذل مهجته في سبيلك، وترك العود في الذنوب، فتقبله مني يا أرحم الراحمين»، قال: ثم انصرفت، فجاءت بعشرة آلاف دينار، وقالت: «يا أبا عبيد، هذا مهر الجارية تجهز به، وجهز الغزاة في سبيل الله تعالى»، وانصرفت فابتاعت لولدها فرسًا جيدًا، واستجادت له سلاحًا فلما خرج عبد الواحد، خرج إبراهيم يعدو، والقراء حوله يقرؤون: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»، قال: فلما أرادت فراق ولدها، دفعت إليه كفنًا وحنوطًا، وقالت له: «يا بني إذا أردت لقاء العدو فتكفن بهذا الكفن، وتحنط بهذا الحنوط، وإياك أن يراك الله مقصرًا في سبيله»، ثم ضمته إلى صدرها، وقبلته بين عينيه، وقالت له: «يا بني لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات القيامة».

قال عبد الواحد: فلما بلغنا بلاد العدو، ونودي في النفير، وبرز الناس للقتال، برز إبراهيم في المقدمة، فقتل من العدو خلقًا كثيرًا، ثم اجتمعوا عليه فقتل.

قال عبد الواحد: فلما أردنا الرجوع إلى البصرة قلت لأصحابي: «لا تخبروا أم إبراهيم بخبر ولدها، حتى ألقاها بحسن العزاء، لئلا تجزع فيذهب أجرها»، قال: فلما وصلنا البصرة خرج الناس

يتلقوننا، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج، قال عبد الواحد: فلما نظرت إليَّ قالت: «يا أبا عبيد، هل قُبلت مني هديتي فأهنأ، أم رُدت عليَّ فأُعزى؟ فقلت لها: «قد قبلت هديتك، إن إبراهيم حي مع الأحياء يرزق» قال: فخرت ساجدةً لله شكراً، وقالت: «الحمد لله الذي لم يخيب ظني، وتقبل نسكي منى»، وانصرفت، فلما كان من الغد أتت مسجد عبد الواحد، فنادت: «السلام عليك يا أبا عبيد بشراك»، فقال: «لا زلت مبشرة بالخير» فقالت له: «رأيت البارحة ولدى إبراهيم، في روضة حسناء، وعليه قبة خضراء، وهو على سرير من اللؤلؤ، وعلى رأسه تاج وإكليل، ويقول: «يا أماه أبشري، فقد قبل المهر، وزفت العروس»[1]

❁❁❁

(١)- نقلًا عن المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية - للمقدم.

أنجبت رجلاً بألف رجل

صفية بنت عبد المطلب تلك الأم القوية العظيمة عمة الرسول ﷺ وأخت حمزة أسد الله وسيد الشهداء، وأم حواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، الذي عده الفاروق بألف رجل في فتح مصر، نشأ الزبير في كنف أمه وعلى طبعها، وتخلق بصفاتها.

توفى عنها زوجها وترك لها الزبير، فنشأته على الخشونة والبأس والفروسية، ولم تنشئه على التخنث والميوعة، وجعلت لعبه في برى السهام والقسي، ورمت به في كل خطبٍ ومهلكةٍ، وإذا عاد خائبًا ضربته، فقال لها أحد أعمامه يومًا:

«إنما تضربينه ضرب مبغضة»

فقالت:

«من قال أبغضه فقد كذب، إنما أضربه لكي يلب، ويهزم الجيش ويأتي بالسلب»[1]

ومن هذا الجلد وبهذه الروح الفروسية، خرج الزبير بطلاً مقدامًا، وفارسًا مغوارًا لا يشق له غبار..

وكان الفضل في ذلك لأمه التي علمته وربته وشجعته..

وكيف لا يكون لمثلها أن تنجب بطلاً كالزبير، وهي أخت حمزة بن عبد المطلب أسد الله؟

ولما انهزم المسلمون في أُحد بعد أن خالف الرماة أوامر النبي ﷺ وانفض أكثر الناس عنه قامت صفية رضي الله عنها وبيدها رمح تضرب به وجوه المنهزمين والأعداء المشركين وتقول لهم: انهزمتم عن رسول الله..ولما خرج ﷺ إلى الخندق، جعل النساء في حصن من الحصون فجاء يهودي يريد تسلق الحصن حتى أطل عليهن، تقول صفية: فأخذت عمودًا فنزلت إليه حتى فتحت له الباب

(١)- راجع كتابنا: قيمة الوقت.

قليلاً.. فحملت عليه فضربته به حتى قطعت به رأسه، ثم رميت به عليهم.

ولقد خرج ولدها على طبعها وصلابتها، بل خرج بطلاً عظيمًا من أبطال الإسلام، وقد بلغ من بسالته أن عدل به الفاروق عمر ﷺ ألفا من الرجال..

فعندما طلب عمرو بن العاص ﷺ مددًا في فتح مصر، كتب إليه عمر:

أما بعد فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف، الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد..

وصدقت فراسة عمر وسجل التاريخ أن الزبير بن العوام ليس بألف فقط، بل بأمة كاملة.. فها هو يتسلل إلى الحصن الذي كان يعوق تقدم المسلمين، ويصعد فوق أسواره ويلقي بنفسه بين جنود العدو وهو يصيح صيحة الإيمان: اللَّهُ أكبر..

ثم اندفع إلى باب الحصن، وفتحه على مصراعيه، واندفع المسلمون على إثره واقتحموا الحصن وقضوا على العدو.

هذا هو البطل الذي تربى في حجر هذه الأم القوية التي كان يمتثل قوتها في كل ملحمة من ملاحم الجهاد

كانت هذه الأم الأبية حاضرة أمام ولدها البطل.

جاهد بضفيرتها

وهذا مثل آخر من أمثلة الفداء والبطولة؛ غلام حدث دفعته أمه ليقاتل بسيفه وسنانه مدافعًا عن الإسلام، وأشربته حب الجهاد في سبيل الله سبحانه، وها هو أبو قدامه يحكي ويقص خبره وخبر أمه..

قال أبو قدامه أحد قادة المسلمين في المعارك ضد الروم: كنت أميرًا فدعوت إلى الجهاد في سبيل الله فجاءت امرأة بورقة وصرة ففضضت الورقة لأقرأها لأنظر فيها، فإذا في تلك الورقة: «بسم الله الرحمن الرحيم من أمة الله المسلمة، إلى أمير جيش المسلمين سلام الله عليك أما بعد:

فإنك قد دعوتنا إلى الجهاد في سبيل الله ولا قوة لي على الجهاد

ولا مقدرة لي على القتال وهذه الصرة فيها ضفيرتي، فخذها قيداً لفرسك لعل الله يكتب لى شيئاً من ثواب المجاهدين.

يقول: فشكرت الله على توفيقها، وعلمت أن المسلمين يشعرون بواجبهم ويتكتلون ضد أعدائهم، فلما واجهنا العدو أبصرت صبيًا حدثًا ظننت أنه ليس أهلا للقتال لصغر سنه فزجرته رحمة به، فقال:

كيف تأمرني بالرجوع وقد قال الله تعالى: «انفروا خفافاً وثقالاً»[1]

قال أبو قدامه: فتركته ثم أقبل عليَّ وقال: أقرضني ثلاثة أسهم فقلت له وأنا معجب به ومشفق عليه:

أنا أقرضك ما تريد بشرط أن تشفع لى إن من الله عليك بالشهادة، وكنت أشعر نحوه بمحبة وتقدير، فقال: إن شاء الله فأعطيته الأسهم الثلاثة، ثم أقبل على العدو في قوة وحماس وما يزال ينال من أعدائه وينالون منه، حتى خر صريعًا في ميدان القتال.!

وكانت عيني لا تفارقه طوال المعركة إعجابًا به ووجلاً عليه، فلما خر صريعًا أقبلت عليه وسألته:

(١)- التوبة: ٤١.

هل تريد طعامًا أو ماء؟ فقال: لا، إني أحمد ﷲ على ما صرت إليه، ولكن لي إليك حاجة، فقلت له: ليس هناك أحب إليَّ من قضائها يا بنى فمرني ما تشاء..

فقال وهو يلفظ أنفاسه الطاهرة: اقرِئ أمي منى السلام ثم ادفع إليها متاعي، فقلت: ومن أمك أيها الغلام؟ قال: أمي هي التي أعطتك شعرها ليكون قيدًا لفرسك حين عجزت أن تقاتل بنفسها في سبيل ﷲ تحت لوائك، قلت: بارك ﷲ فيكم من أهل بيت، ثم فارق الحياة.

فقمت نحوه بما يجب، فلما دفنته لفظته الأرض، فعاودت دفنه مرة أخرى، فأعمقت له في الحفرة ثم دفنته فلفظته الأرض ،فعاودت دفنه مرة أخرى أيضًا فأعمقت له في الحفرة ثم دفنته فلفظته الأرض مرة ثالثة، فقلت:

لعله خرج بغير رضاء أمه، فصليت ركعتين ودعوت ﷲ أن يكشف لي عن أمر هذا الغلام، فسمعت من يقول لي: يا أبا قدامه.. دع عنك وليّ ﷲ، فتركته وشأنه وعلمت أن له مع ﷲ حالًا، وبينما نحن كذلك، إذا بطير قد أقبل فأكله فتعجبت كثيرًا ثم رجعت إلى أمه تنفيذًا لوصيته فلما رأتني أقبلت عليَّ

وقالت: ما وراءك يا أبا قدامه؟ هل جئتني معزيًا أو جئتني مهنئاً؟ فقلت: لها ما معنى ذلك يا أمة الله؟ فقالت:

إن كان ابنى قد مات فجئتني معزيًا وإن كان قد قتل في سبيل الله تعالى فقد جئتني مهنئًا، فقصصت عليها قصته وأخبرتها عن الطيور وما فعلت به، فقالت: لقد استجاب الله دعاءه، فقلت لها، وما ذاك؟ قالت: إنه كان يدعو الله، في صلواته وخلواته ويقول في صباحه ومسائه:

(اللهم احشرني في حواصل طير خضر)، والحمد لله على تحقيق أمله، وإجابة دعائه، قال الأمير: فانصرفت عنها وقد علمت لماذا كتب الله لنا النصر والتأييد على الأعداء»[1]

❁❁❁

(١)- قصص التابعيات : لمصطفى مراد.

الأمم التي رفضت الذل

لعل هذه النفوس المحبة للجهاد، المقبلة على الموت في سبيل الله هي التي أعزت دين الله وجلبت المجد للأمة ومكنت رايتنا أن تسود المشارق والمغارب، لقد كان منها نفوس تهوى الموت ولا تقبل أن تعيش ذليلة مهانة يضيع عرضها وينتهك شرفها..

يذكر شيخنا الغزالي رحمه الله في كتابه هموم داعية قصة قرأها في تاريخ أسامة ابن منقذ فيقول:

«كان أسامة بن منقذ شابًا قويًا، صاحب بطولات باهرة في قتال الصليبيين وعصابات الحشاشين وفرق الباطنية التي ظهرت في القرن الخامس الهجري، ويبدو من سيرته أنه صاحب مغامرات وبأس، وكان لأسرته حصن في ضواحي (حماة) يأوون

إليه ويحتمون به، وخرج أسامة هذا في إحدى المعارك وتغيّب عن الحصن طويلاً تاركًا أمه وأخته، فماذا حدث بعده؟

فرقت الأم السيوف على المقاتلين الذين انبثوا بعيدًا للدفاع، ثم جاءت الأخت وأمرتها أن ترتدي ملابسها، ثم أجلستها في شرفة تطل على واد سحيق! وأخذت الأم مكانها قريبًا من الباب ترقب الموقف وتنظر ما يكون.

وعاد أسامة إلى الحصن بعدما أدى واجبه، ومد بصره ليرى أسلحته فلم يجدها فقال لأمه: أين السيوف؟

قالت: أعطيتها من يقاتل عنا، وما ظننتك سالماً..

ورمق أخته جالسة على شفا الوادي، فتساءل: أختي، أي شيء تفعل هنا؟ قالت الأم: أجلستها في الشرفة، وجلست بمرأى منها حتى إذا وصل العدو إلينا دفعت بها في أعماق الوادي..

لأن تموت خير من أن تقع أسيرة بين هؤلاء الكفار.!

قال أسامة بن منقذ: فشكرت أمي على حسن تصرفها، وتقدمت الأخت إلى أمها بالشكر قائلة لها: جزاك الله خيرًا»

وأمام هذا الخبر غصت في لجة من الذكريات.. إن الأم تريد

إراحة نفسها وابنتها والأسرة من عار الأسر بالموت في هاوية سحيقة، والابن يشكر، والبنت توافق راضية.

إنها أم قوية النفس، عظيمة الجهاد، صلبة الإرادة، تفضل أن تجود بروحها إلى خالقها على أن تقع أسيرة ذليلة في الأعداء، فرحبت بالموت، ورحبت فتاتها التي ربتها بالموت، لأن مبدأ الذل مرفوض في حياتهم ولا تقبله طبائعهم.

تفخر بولديها

وهذه (عمرة الخثعمية) التي فقدت ولديها وأخذت في رثائهما وسرد مناقبهما، إنها تفخر بشجاعة ولديها في وجه الحتوف، وتتحدث عن المجد الذي حققاه في حياتهما وعن فضائل البذل والإيثار والإستعفاف التي توفرت لهما، إنها تقول:

هما أخوا في الحرب من لا أخا له

إذا خاف يوما نبوة فدعاهما

هما يلبسان المجد أحسن لبسة

شحيحان مااستطاعا عليه كلاهما

شهابان منا أوقدا ثم أخمدا

وكان سني للمدلجين سناهما

إذا نزلا الأرض المخوف بها الردى

يخفض من جاشيهما منصلاهما

إن الحزن لم يذهب بنفسها كمدًا، لأن ولديها ذهبا في سبيل المجد والشرف، ترى هل المرأة المسلمة اليوم على هذا المستوى في الوعي والسلوك والكفاح؟

ومن هنا عز الإسلام، وقويت شوكة المسلمين، وارتفع لواؤه خفاقًا في أرجاء الدنيا، كان هذا يوم أن كانت الأم العظيمة، تفهم رسالتها، وتدرك دورها في بناء الأمة وإعداد الجيل.

خلفت جيلاً من الأبطال سيرتهم

تضوع بين الورى روحاً وريحانا

كانت فتوحهم برًا ومرحمة

كانت سياستهم عدلاً وإحسانًا

لم يعرفوا الدين أورادًا ومسبحة

بل أشبعوا الدين محرابًا وميدانًا

وإذا كانت هذه المرأة تفخر بولديها؛ فهناك من جعلت موت ولدها وزوجها فرحا تقبل فيه التهنئة وترفض التعزية.

ففي السنة السادسة والسبعون للهجرة خرج (صلة بن أشيم) وولده في معركة مع جيوش المسلمين المتجهة إلى بلاد ما وراء النهر، ولما التقى الجمعان وكان القتال شديدًا وحمى وطيس المعركة قال صلة لابنه:

أي بني تقدم وجاهد أعداء الله تعالى، فإذا استشهدت احتسبتك عند الذي لا تضيع ودائعه..

فانطلق الفتى إلى قتال العدو وما رجع حتى خرّ شهيدًا في سبيل

ﷻ تعالى، وهنا فرح صلة بشهادته وأخذ يدعو ﷻ له ودعا ربه أن يرزقه الشهادة كما رزق ابنه وانطلق إلى العدو وظل يقاتل ويقاتل حتى رزقه ﷻ الشهادة، وبلغ نعيهما البصرة واتجهت نساء البصرة إلى زوجة صلة وأم ابنه معاذة العدوية ليواسينها في مقتل ابنها وزوجها فردت ردًا عجيبًا وقالت:

« إن كنتن جئتن لتهنئنني فمرحبًا بكن، وإن كنتن جئتن بغير ذلك فارجعن»

أمهات في وجه الإحباط

أمي هي التي صنعتني

كثير من العباقرة والعظماء كاد أن يجرفهم تيار الإحباط، وتصيبهم كلمات المثبطين في مقتل، لينحرف مسارهم إلى الفشل والضياع؛ لولا وجود أمهات فطنات حكيمات وقفن خلف أبنائهن بالتشجيع والدعم والمؤازرة. حتى كانت المفاجآت التي أظهرتها الأيام.

ذات يوم، أرسلت المدرسة إلى أم تلميذ تقول لها: «وفري مالك، لا داعي لتعليم ولدك، لأنه غير صالح للتعليم، فهو بليد ومتخلف عقليًا»، وتساقطت دموع الفتى على مقلتيه حينما قال له أحد أساتذته: «إن رأسك الكبير مملوء بالتراب». لكن الأم العظيمة أبت في شموخ أن ينطفيء الإبداع في طفولته، وصممت على أن تُعلمه بنفسها، وفعلاً علمته، ولم تؤثر فيها عوامل الإحباط وأقوال المحبطين.

مينلو بارك»، ويعتبر أديسون من أوائل المخترعين الذين قاموا بتطبيق مبدأ الإنتاج الشامل والعمل الجماعي على نطاق واسع لعملية الإختراع، وكان يُعرف بأنه أول من أنشأ مختبرًا للأبحاث الصناعية. ويُعد رابع أكثر مخترع إنتاجًا في التاريخ، ويمتلك ١٠٩٣ براءة اختراع أمريكية تحمل اسمه، فضلاً عن العديد من براءات الاختراع في وفرنسا وألمانيا، وكان له الفضل في العديد من الاختراعات التي ساهمت في وسائل الاتصال الجماهيري، شملت تلك الاختراعات مسجل الاقتراع الآلي، والبطارية الكهربائية للسيارة، والطاقة الكهربائية ومسجل الموسيقى والصور المتحركة كما وضع نظام توليد القوة الكهربائية وتوزيعها على المنازل والشركات والمصانع، مما أدى إلى تطور جوهري في عالم الصناعات الحديثة.»[1]

❁❁❁

(١)- ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

بدأ (أديسون) في التعليم المنزلي، وبدأ يطبق أفكاره الغريبة التي سخروا منها في المدرسة ومحاولة تلو أخرى، فشل ثم فشل، لكنه لم ييأس، فقد نظر للفشل في حياته، أنه خبرات وتجارب تفيد بعضها بعضاً. وأجرى ٩٩٩٩ تجربة دون يأس ولا استسلام، وفي تمام العشرة آلاف كان اختراعه المذهل الذي أضاء العالم وواجه الظلام (المصباح الكهربائي).

وكانت نظرته للفشل نظرة إيجابية حينما قال: «تعلمت ٩٩٩٩ تجربة لا يعمل بها المصباح الكهربي، ثم تعلمت واحدة بها يعمل»، وهذا الإنجاز العظيم كان بفضل أمه التي عرفت مرارة الإحباط وألم اليأس، ولكنها كانت تعرف كذلك كيف تقاومه وتهزمه في نفس ولدها حتى تربع على عرش المخترعين بعد ذلك، ليصير المخترع العبقري (أديسون)، بفضل الأم العظيمة (نانسي اليوت أديسون) التي قال عنها في ذكرى وفاتها معترفًا بفضلها عليه: «لم أكن أعرف الحزن حتى ماتت أمي، فهي التي صنعتني».

«اخترع أديسون العديد من الأجهزة التي كان لها أثرٌ كبيرٌ على البشرية حول العالم، مثل تطوير جهاز الفونوغراف وآلة التصوير السينمائي، وأطلق عليه مراسل إحدى الصحف لقب «ساحر

ماذا فعلت الأم السوداء؟

لقد تركت هذه الأم المدرسة وهي في الصف الثالث وتزوجت وعمرها ١٣ عامًا ثم انفصلت عن زوجها وترك لها ولدين لتقوم وحدها بعملية التربية، لقد كافحت وكدحت في تربية ولديها، فعملت خادمة في المنازل، وكانت تزاول عملين أو ثلاثة في اليوم الواحد حتى تملك القدرة على المعيشة.

كانت ولديها يعيشون في شقق متداعية تعبث فيها الجرذان والصراصير في أحياء سكنية تنتشر فيها الجريمة والعنف، وفي ظل هذه الآلام أصابتها الصاعقة وشعرت أن أملها في ولديها يتبدد حينما علمت أن ولدها الأصغر (بن كارسون) يعاني انحدارا في مستواه الدراسي، وأنه أغبى طفل في المدرسة، وأنه يُعرف بين أصدقائه بالطفل الغبي.

كان ذلك و(بن كارسون) في الصف الخامس وفي الثامنة من عمره، وعزمت أن تعالج الأمر وتصحح من مسار ولدها، وكانت طريقة علاجها على درجة كبيرة من الوعي، حينما قامت كلها على القراءة، حتى تزيل هذا التبلد في عقل طفلها وتنسحب غيوم الغباء من سماء نفسه.

إنها لم تفعل شيئًا إلا أن قللت من أوقات مشاهدة التلفاز واللعب لتكون أوقاتًا قصيرة جدًا في اليوم، وأن يقوم ولدها باغتنام بقية الأوقات في المكتبة العامة بالمدينة يقرأ ويطلع ويتثقف، وطلبت منه أن ينهي كتابين في الأسبوع الواحد في أي مجال أو نوعية من الكتب التي يُحبها، ولكن بشرط أن يقدم لها تقريرًا في نهاية الأسبوع يلخص لها فيه ما قام بقراءته، مع ملاحظة أنها لم تكن تعرف القراءة! ولكنها كانت توهمهم بذلك وتقوم بوضع خطوط على التلخيص. واستمرت في خطتها إلى أن آتت أكلها، وكان بن كارسون يحب علم الحيوان فقرأ الكثير في هذا العلم، وعلم الصخور، كان يقرأ في المكتبة، ويطبق هذا العلم بشكل عملي على البيئة الفقيرة التي يعيش فيها بين السكك الحديدية، وبعد فترة وفي أثناء الدراسة دخل المدرس على التلاميذ في الفصل الدراسي وكان بيده صخرة وقال لهم:

من يعرف اسم هذه الصخرة؟ لم يجب أحد من الطلاب إلا بن كارسون الذي رفع يده طالبًا من معلمه أن يجيب على السؤال، وانفجر التلاميذ جميعًا بالضحك والسخرية، فكيف لـ(كارسون) الغبي الذي يرسب في كل المواد، أن يجيب ويعرف ما عجزوا هم عن معرفته؟ ولكنه قام وأجاب إجابة كاملة شافية مع وصف كامل لهذه الصخرة البركانية التي أتى بها المعلم. توقع زملاؤه أن يكون ما قاله خطأ، وانتظروا اللحظة التي ينهره فيها المعلم حتى يضحكون عليه مرة أخرى، ولكن رد المعلم فاجأهم حينما قال له: أحسنت يا بني فالإجابة صحيحة.!

وهنا وفي هذه اللحظة الفريدة في حياته، لحظة التفوق على أقرانه أدرك أن الذي انتشله وارتقى به من مرحلة أدنى طالب إلى طالب يثير الانبهار إنما هي القراءة، وطريقة أمه حينما وجهته إليها، وهنا قرر صاحبنا أن يوسع مجال القراءة، وكان التحول العجيب حينما أصبح هؤلاء الذين يرمونه بالغباء قديمًا يأتون إليه ليسألونه ويستشيرونه في كثير من المسائل، وأنهى (بن) دراسته الثانوية والتحق بالجامعة وحصل على البكالوريوس في علم النفس، ثم التحق بكلية الطب لينتقل من علم النفس إلى جراحة الأعصاب، وأصبح مديرًا لمستشفى (بالتيمور) لجراحة

الأعصاب للأطفال وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وكان أول شخص ينجح في فصل التوأم السيامي الملتصق بالرأس، وأحد أبرز جراحي العالم، ويُجري مئات العمليات الحساسة والمعقدة في كل سنة في مناطق الجسم الحساسة، وأنقذ حياة آلاف الأطفال بفضل موهبته وعبقريته، وفي عام ١٩٨٥، أتقن إجراء عملية استئصال نصف دماغ الأطفال الصغار المصابين بنوبات صرع مزمنة، وتتابعت الانجازات المبهرة .

وفي عام ٢٠٠١ وصفته مكتبة الكونغرس الأميركية بأنه أحد (الأساطير الحية) الـ ٨٩، كما منحه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش الميدالية الرئاسية للحرية عام ٢٠٠٩م، وهي أعلى تكريم أمريكي للمدنيين، وصار له أكثر من ٩٠ مؤلفًا طبيًا من أكثر الكتب مبيعًا.!

زجت بولدها في البطولة

أراد والد (إحسان عبد القدوس) أن يجعل منه أديبًا وأن ينمي فيه ملكة القراءة بما كان يجلبه له من قصص كثيرة، وكانت والدته ترغب أن تزج به في عالم الصحافة، ولم يكن يدور في خلدهما أن ولدهما العبقري سيجمع بين الأمرين معاً؛ فكان أديبًا وصحفيًا لامعًا.

لقد عينته أمه سكرتيرًا لروز اليوسف، ولكن الخط الصحفي الذي تنتهجه روز اليوسف هو خط الوطنية الساخنة ومواجهة الفساد والاحتلال، وكانت تتعرض نتيجة لذلك النهج للحظر والإغلاق أكثر من مرة ، لكن صاحبتها روز اليوسف التي هي أم إحسان، لم تكن تيأس أو تمل أو تنضب لها عزيمة، وإنما كانت قوية الهمة ماضية العزيمة في إيصال صوتها وكلمتها..

وكان إحسان في تلك الفترة وفي سن الخامسة والعشرين من عمره على موعد مع عالم البطولة والشهرة الذي طرق بابه بعنف وقوة في مقاله الشهير (هذا الرجل يجب أن يذهب) والذي هاجم فيه اللورد (كيلرن) سفير بريطانيا على خلفية حادث ٤ فبراير، والذي أملى فيه على فاروق بضرورة تعيين النحاس باشا رئيسا للوزراء، فكان عدوانًا على السيادة المصرية.

لقد كان إحسان يعلم جيدًا أنه سيضرب بكلمته هيبة الإنجليز، وسيصطدم بالملك الذي استسلم للمأساة وبحزب الوفد الذي أتى به الإنجليز، كما سيصطدم بالإقطاعيين الذين يحمي الاستعمار مصالحهم، وظهر المقال الخطير عام ١٩٤٥م، فكان صرخة مدوية أمام صمت كثيف من كل الأقلام التي أخافها وأسكتها الارهاب، فلما كتب إحسان كان مقاله السهم الأول الذي انطلقت بعده كل السهام تجاه عدوها المرصود، بل كان الشرارة الأولى التي تولدت منها نيران الغضب في الصحف المصرية، وبعد نزول العدد للسوق، كان إحسان يجلس مع مجموعة من أصدقائه يترقبون ردود الفعل على كل الأطراف، وفجأة فتح الباب ودخل أفراد البوليس السياسي، ويذهب بكل شجاعة إلى سجن الأجانب، وذهبت أمه معه ودارت مناقشة عنيفة بينه

وبينها حين أرادت أن تنسب المقال لها لتدخل السجن بدلاً منه، ولكنه أصر حتى أودعته النيابة في السجن.

وهنا تحرك قلب الأم المناضلة، فترسل لولدها الذي يشق طريقه في عالم النضال خطابها التاريخي الذي لا مثيل له في دنيا الأبطال تقول فيه:

«إلى ولدي السجين..أحييك في سجنك تحية أم وتحية مواطنة، حملت قبلك شرف الجهاد في قضية مصر، وقد اختلط في نفسي، شعور الأم بشعور المواطنة، فما أدري بأيهما أعبر عن نفسي وإن في قلبي ليستعر جحيمان جحيم الأم وجحيم المبدأ، وكلاهما قطع من العذاب..

أحمد الله عليك إذن وأنت في أول طريقك في قضية مصر، وقد نزلت منزلًا كريمًا في سبيل مبدأ كريم، والسجن يا ولدي منازل الأحرار، إذا دخلوه مدافعين عن حرية الرأي مناضلين في سبيل الحرية، فلا يرضون بإحناء الرأس وتلجيم الفم من أجل متاع دنيا لا تدوم.

ثم أحمد الله على نفسي إذ أكرمني وأنا ما زالت على قيد الحياة ، بأن أراك تحقق أملي فيك وتستقيم على المنهج الذي ربيتك

عليه أن تكون لبلادك ولحرية الرأي وأنت لا تزال في السن التي يكون فيها غيرك لمغامرات الشباب وأحلام الشباب ومناهج العيش الهني ».

وخرج إحسان من عالم السجن إلى عالم الشهرة والمجد الممزوج بالنضال والكفاح، وأرادت الأم أن تكافئ هذه البطولة الوليدة فأعدت له حفلة كبيرة ومنحته ثقتها وجعلته بدلاً منها رئيسًا لتحرير روز اليوسف في هذه السن الصغيرة.

دع العجزة والمرضى في طريقك

مع إحسان مرة أخرى حتى نسوق هذا الدرس المهم للأمهات وموقفهن في محطات الإحباط التي تعتري أبناءهن في الحياة. لقد كان إحسان عبد القدوس واحدًا من هؤلاء الناجحين الذين ضعفوا ولانوا أمام ضربات الخصوم ونقدهم اللاذع الرخيص الذي أرادوا به تحطيم نجاحه وإيلام تفوقه، ووخز قلمه ليخرج من معركة الصحافة مهزومًا مخزولاً.

لقد صب خصوم إحسان عليه إهانات بالغة، كاد معها أن يفقد موهبته، وكادت مصر كلها أن تفقد فيها وبسببها قلمًا وطنيًا شريفًا طالما دافع عن حقوق أبنائها بجرأة وشجاعة، ففي فترة ما قبل انقلاب ٥٢ وفي نهاية عهد فاروق لحكم مصر، كان إحسان شديد الهجوم على حزب الوفد، عنيف النقد لسياساته وتوجهاته وزعيمه، لأنه يمثل في نظره السلطة الحاكمة

التي تشارك القصر والإنجليز في كثير من المظالم التي تقع على عبء الشعب المصري ومواطنيه الضعفاء.

كان قلم إحسان في تلك الفترة قلمًا مُلهبًا مُوجعًا ينفث بالحمم كما عبر هو عنه بنفسه بقوله: «إني أكتب والقلم يطق غيظاً وينفث السطور كحمم النار»، وكانت مقالاته وكتاباته تصول وتجول فيهاجم الإنجليز تارة والوفد تارة أخرى، ولا ينكمش أو يخشى من التعريض بالقصر ورجاله ومفاسدهم.

ففي مقاله الصادر في ١٩٥١/١٢/٤م كتب تحت عنوان: (الحكومة معنا أم علينا؟) انتقد فيه النحاس باشا، واتهم حكومته بالتخاذل عن نصرة الثوار في مواجهة الاحتلال البريطاني، واختتم مقاله الساخط بقوله: «أخشى أن أقول: إن الحكومة تخشى تحرك الشعب أكثر مما يخشاه الانجليز، خصوصًا إذا كان شعبًا مسلحًا»، وكانت نتيجة هذا الهجوم والنقد المتكرر أو التوبيخ المستمر، أن تعرض لحملة قاسية غير شريفة، شنتها عليه صحيفة (صوت الأمة) الناطقة بلسان حال حزب الوفد كنوع من الانتقام والثأر لحزبها وزعيمه، وركزت (صوت الأمة) في هجومها ضده على أنه ابن ممثلة، وأنه تمامًا كأمه لا يفهم في السياسة، ويجب عليه أن يبتعد عنها، وهنا يغضب إحسان غضبًا شديدًا ويحزن كثيرًا من هذه الإساءة التي أهانت كرامته

ونالت من كبريائه وجرحت مشاعره كرجل، وأصابته بموجات عاتية من اليأس والإحباط قرر معها أن يعتزل الصحافة ويعمل بالمحاماه. وفي ظل هذا الحزن الكثيف والكآبة المدوية والإحباط المظلم تطل الأم المناضلة (روز اليوسف) بما لها من عزيمة ومضاء وهمة الأقوياء على ولدها المحزون، تريد أن تعلمه درسًا هامًا في الحياة ربما لم يواجه مثله من قبل. لقد أحست أمه بمعاناته والمحنة التي تتألم منها نفسه، والتي سببها له هذا الهجوم المسف المشين الخادش للإنسانية والشعور، فقدمت له مجموعة من مجلة (الكشكول) التي كان يحررها سليمان فوزي باسم الأحرار الدستوريين، وبها شتائم وسباب شخصي موجع لأمه، فلما قرأ إحسان اعتلته دهشة كبيرة، لأن هذا الهجاء الذي قوبلت به أمه كان حقيرًا عفنًا رخيصًا إلى درجة عالية. وهنا وبين ثنايا هذه الدهشة ابتسمت لولدها وقالت له: من الذي بقي يا ولدي، الكشكول أم روز اليوسف؟ يا بني إذا شتمك خصمك في الرأي فاستبشر خيرًا فهذا دليل عجزه، وإذا كنت قويًا فدع العجزة وامض في طريقك.

الأم التي هزمت اليأس

(إياح حتب) هذا الاسم الذي يذكره التاريخ المصري القديم بشموخ كبير ويباهي به زمن الفراعنة كلما حاول عصر من العصور أن يتحدث عن عظمة الأم. قُدر لهذه الملكة أن تلعب دورًا كبيرًا في حرب المصريين مع الهكسوس الذين غزوها في عصر الانتقال الثاني، والذي كان من عصور الضعف التي مرت بمصر، لقد كان احتلالاً بشعًا سجل صورته «يوسفيوس» بما نقل عن «مانيتون» في قوله: (في عهد «توتيمايوس»، ولسبب لا أعرفه، حلَّت بنا ضربة من الإله، وفجأة تقدم - في ثقة بالنصر- غزاةٌ من الشرق من جنسٍ غير معروف إلى أرضنا، واستطاعوا بالقوة أن يتملكوها في سهولة دون أن يضربوا ضربة واحدة، ولما تغلبوا على حكام البلاد، أحرقوا مدننا بغير رحمة، وهدموا معابد الآلهة، وعاملوا المواطنين بقسوة،

فذبحوا بعضهم، وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا بمثابة إماء وعبيد لهم)

كانت إياح زوجة لملك أفنى عمره في الدفاع عن وطنه ضد العدوان الخارجي وهو (سقنن رع)، الذي تزوجها وأنجب منها كاموس وأحمس وكلاهما لعبا دورًا كبيرًا في تحرير وطنهم من الغزاة الأشرار، والمؤرخون يعتبرون هذه الملكلة هي الوقود الكبير والروح المعنوية العالية التي بثت العزيمة والأمل والصمود في المصريين، ودفعتهم ليواصلوا الكفاح في حرب الأعداء.

فبعد سقوط زوجها في إحدى المعارك لم تيأس، وحرضت ولدها كامس لمواصلة المسيرة، وكان له دور كبير في إضعاف الأعداء إلى أن سقط مثل أبيه فداءً لوطنه، حتى جاء ولدها أحمس وكان عمره عشر سنوات، وكانت وصيةً عليه فقامت بتصريف شؤون الدولة وإدارة الحكم سياسيًا وعسكريًا وقادت في تلك الفترة عملية إعداد وتأهيل الشعب للنضال والكفاح ضد المحتلين، فجمعت شمل الجيش وأعلنت النفير، ولم يقتلها اليأس لتقعد مهزومة مكلومة ضعيفة، وإنما انطلقت لغايتها ولبست ثياب الحرب وشاركت في المعارك، وقالت لابنها أحمس: لا تعد إلا بالنصر لن اسمع منك كلمة أمي، ولن تسمع مني كلمة ابنى، حتي نحرر كيميت أرضنا المقدسة.

واستطاع أحمس بفضل هذه الأم الصلبة المتماسكة التي شجعته ووجهته وحفزته وسلطته على العدو، أن يحرر مصر من بلاء المحتلين ومن الهكسوس الغاصبين، وطردهم واستأصل شأفتهم وطوى صفحتهم من التاريخ، وبعد أن عاد مع والدته من الحرب، استقبلهم المصريون في فرحة غامرة وشعور كبير بالامتنان، وخرجوا جميعًا يستقبلون الأم المنتصرة التي علمتهم الصبر والأمل والكفاح والنضال، وقادتهم بحماس كبير في معركة التحرير.

لقد أدرك أحمس أن أمه هي السبب المباشر في هذا النصر وتحرير البلاد، والأمل الحقيقي الذي هزم اليأس في النفوس قبل أن يهزم جيوش الأعداء؛ فكان لابد له أن يكرمها ويرفع مقامها بعد أن رفعت شأن مصر، وقدمت لتحريرها أعز ما تملك فمنحها ميدالية الذبابة الذهبية التي تعد أرفع الأوسمة المصرية، وصنع لها لوحة تذكارية تخليدًا لذكراها.

الأم التي تحدث الاحباط

وفي (نابولي) كان هناك صبي صغير يبلغ من العمر عشر سنين، ويعمل في أحد المصانع، كان عاملاً بسيطًا دخل معترك الحياة في العاشرة من عمره، وأنهى دراسته الابتدائية وهو يعمل نهارًا ويدرس مساءً، وكانت أمنيته التي تسيطر على خياله أن يصبح مغنيًا، إلا أن معلمه أحبطه وقال له: لا يمكنك الغناء يا صغيري فأنت لا تملك أية موهبة على الإطلاق، وصوتك يشبه ريحًا تصفق.

غير أن أمه الفلاحة الفقيرة احتضنته وطوقته بذراعها وشجعته، وزرعت فيه الأمل مرة أخرى بعد أن أحبطه هذا المعلم الجهول، وقالت له أمه: إن صوتك جميل، وأشفقت على أدائه، وكانت تخرج حافية القدمين تكد وتتعب حتى توفر له نفقات دروس

الموسيقى، واستطاعت بإصرارها وجهادها أن تُغير حياة ولدها الذي كاد الإحباط أن يهدمه يومًا ما، وأصبح هذا الصبي فيما بعد هو (إنريكو كاروزو) مطرب الأوبرا الشهير.

وإذا كانت هذه الأم العظيمة قد تحدت الإحباط والمحبطين، فانظر لهذه الأم التي صنعت معجزة حينما تحدت الإعاقة؛ إنها «كريستين بارنيت» أم عبقرية اختارت دخول التاريخ من أوسع أبوابه، حينما تجاهلت تمامًا ما قاله الخبراء عن ابنها (جيكوب) المصاب بمرض التوحد، وانصاعت لغرائزها الخاصة كأم، ومع مرور السنوات توصلت إلى نتائج مذهلة، فالأطباء أعلنوها صراحة أن «جيكوب» مصاب بمرض التوحد عندما كان في الثانية من عمره، وقالوا: إنه لن يتمكن من الحديث طوال حياته. إلا أن «بارنيت» قامت بتجربة برامج تربية خاصة، وطرق علاجية تهدف لمعالجة حدود قدراته، وعندما قال لها المدرسون: إنه لا يوجد أمل؛ تمردت على ما أقروه واتخذت مسارها الخاص، فقامت بارنيت بالاهتمام به ورعاية هواياته، ومحاولة استخراج مواهبه، ودرس جيكوب الفيزياء النظرية وقيل إن معدل ذكائه أعلى من آينشتاين، ورشح كما يقال للفوز بنوبل، وما كان لكل هذه المواهب أن تظهر لولا تصميم هذه

الأم وثقتها أن في وجدان ولدها عبقري لابد من إظهاره، لقد سجلت هذه الأم تجربتها في كتاب.

تقول بارنيت: «كان يحب السلوكيات المتكررة، كان يلعب بالكوب وينظر إلى الضوء، ويقوم بعكس الضوء على الحائط لساعات متواصلة، وبدلًا من أخذه بعيدًا، كنت أعطيه ٥٠ كوبًا ممتلئة بالمياه على مستويات مختلفة وأجعله يستكشف، كنت أحيطه بكل ما يحبه.»

وتضيف: «كلما مارست هذا الأمر كلما ازداد نجاح الموضوع، وفي إحدى الليالي تحدث جيكوب، كان كالموسيقى، لأن الجميع قالوا: إن هذا أمر مستحيل الحدوث.»

حقًا إنها الأم المثالية

لم أجد من الأدباء أغزر حديثًا عن أمه كما وجدت الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله، ففي أكثر من مقال ومناسبة يصف حبه العميق لهذه الأم، وحينما علمتُ من حياتها ما علمت، رأيت أن ثناء ولدها عليها لم يمنحها إلا بعض حقها، ولم يعبر إلا بجزء عن بطولتها، وقد أردت بقلمي أن أعرض قصتها ومكانتها في حياة أبنائها، إلا أن قلم الشيخ الطنطاوي في هذا الموطن كان أولى وأصدق، لقد حرك هذا الماضي في نفسه رسالة وردت إليه عبر البريد لأمٍ أشقاها الزمان، تشكو ضيق ذات اليد وفقد المساعد والمعين، وتسأله أتطلق ولديها اليتيمان من أسار المدرسة وتبعث بهما ليعملا؟ وتسأله ماذا تجني منهما إذا درسا وهي لا تملك كساء المدرسة ولا نفقاتها؟ وكيف لهما أن يكملا

الدرس ويتما التحصيل وهما بالثوب البالي والجيب الخالي؟

أرسلت له هذه الأم تبث شكاتها وتروي محنتها عساها أن تجد في جعبته حلاً أو تصريفاً، أرسلتها وهي تظن أنه لا أحد في الدنيا يمر بما تمر به ويواجه مثل ما تواجه من شظف العيش وتنكر الزمان، فإذا به يفاجئها بما هو أشد وأقسى مما تعانيه، إنها قصة أمه التي جاهدت به وإخوته حتى خرجوا إلى الدنيا فازدانت بهم أمتهم وأوطانهم، يقول الشيخ: «كان في دمشق عالم جليل القدر، كريم اليد، موفور الرزق، داره مفتوحة للأقرباء والضيوف وطلبة العلم، وموائده ممدودة، لما أضاق الناس في الحرب العامة الأولى وسع الله بفضله عليه فلم يعرف الضيق، وكان من ذوي المناصب الكبار والمكانة في الناس، ونشأ أولاده في هذا البيت لا يعرفون ذل الحاجة ولا لدغة الفقر ولكنهم أصبحوا يومًا من أيام سنة ١٩٢٥، الولد الكبير البالغ من عمره ست عشرة سنة وإخوة له تتراوح أعمارهم بين عشر وبين شهر، فإذا بالوالد قد توفي. وارتفع الستر، فإذا التركة ديون الناس، فباعوا أثاث الدار كله ليوفوا الدين، ثم تركوا الدار الفسيحة في الصالحية ونزلوا تحت الرصاص (وكانت أيام الثورة) يفتشون عن دار يستأجرونه فوجدوا داراً، أعني كوخاً، زريبة بهائم، مخزن تبن، في غرفتين من

اللبن والطين، في ظل دار عالية لأحد موسري الحارة تحجب عن الغرفتين الشمس والضياء، فلا تراهما — قط — الشمسُ، ولا يستطيع أن يدخلهما الضوء، ليس فيهما ماء إلا ماء ساقية وسخة عرضها شبران وعمقها أصبعان، تمشي مكشوفة من (تورا) في الصالحية إلى هذه الحارة، تتلقى في هذا الطريق الطويل كل ما يُلقى فيها من الخيرات الحسان، وليس فيها نور إلا نور مصباح كاز نمرة ثلاثة، يضيء تارة ويشحّر تارات، والسقف من خشب عليه طين، إن مشت عليه هرة ارتج واضطرب، وإن نزلت عليه قطرة مطر وكف وسرّب، هنالك على أربعة فرش مبسوطات على الأرض متجاورات، ما تحتهن سرير، تغطيهن البسط والجلود، كان ينام هؤلاء الأولاد الذين ربوا في النعيم وغذوا بلبان الدلال، تسهر عليهم أم مثلك حملت ما لم تحمله أم، تدرأ عنهم سيل البق الذي يغطي الجدران، وأسراب البعوض التي تملأ الغرفة، والماء الذي ينزل من السقف، تظل الليل كله ساهرة تطفئ بدمع العين حرق القلب، تذكر ما كانت فيه وما صارت إليه، والأقرباء الموسرون الذين لم يكونوا يخرجون من دار الوالد، كيف تخلوا عن الأولاد وأنكروهم، حتى جاؤوا يوماً يزورون جار الدار الموسر يهنئونه بالعيد ولم يطرقوا — والله — عليهم الباب؟ ولم يُعِنها أحد، ولم يسعفها إلا أخ لها في مصر

أمدها بجنيهات مصرية قليلة، لم يكن يطيق أكثر منها.

في هذا الجو يا سيدتي وماذا تظنين هذا الجو؟ فيه أقبل الولد وإخوته على الدرس والتحصيل، وكانت أطراف البلد للثوار، ليس للفرنسيين إلا وسط المدينة، فكانوا يمرون على الموت في طريقهم إلى المدرسة كل يوم، يخترقون جبهة الحرب (الاستحكامات) القائمة أمام جامع التوبة، وصبروا ووثقوا بالله، وأعانهم الله ووفقهم، حتى صاروا.. ماذا تقدرين أنهم صاروا الآن؟

صار الولد الثاني قاضياً، وصار أديبًا شاعرًا مصنفًا، والثالث أستاذاً كبيراً في الجامعة، وأول من حمل لقب دكتور في الرياضيات في سورية، والرابع مدرسًا موفقًا وداعية وأديبًا، أما الولد الأكبر، فلا أقول عنه شيئًا لأن شهادتي فيه مردودة فهو صديقي الذي لا أفارقه أبداً والذي أكون معه ليلي ونهاري وأراه كلما نظرت في المرآة، وهو فوق ذلك يحمل اسمًا مثل اسمي، وما قصصت هذه القصة إلا تسلية لك وتهوينًا عليك، ولتوقني أنه ربما كان ينتظر ولديك هذين اللذين لا يجدان الغذاء والكساء ينتظرهما مستقبل يحسدهما عليه أبناء الأغنياء، فقولي لولديك: ألا يخجلا إن لم يجدا الثوب الأنيق أو الكتاب الجديد أو المال الفائض؛ فإن أكثر النابغين كانوا من أبناء الفقراء، وكاتب هذه السطور

(وإن لم يكن من النابغين الذين تضرب بهم الأمثال) كان يجيء إلى المدرسة الثانوية بالبذلة التي فصلتها له أمه من جبة أبيه، وقد عجز عن أداء رسم شهادة الحقوق فساعده عليه بعض المحسنين.»[1]

كانت كل هذه الظروف الثقيلة العسيرة كفيلة أن تجبر هذه الأم على الانحناء أمام تيارها الجارف، وتقع مقهورة أمام عوائقها العصيبة.. فتخرج على الأقل أكبر أبنائها كي يعمل في أي مهنة ليساعد أمه في أمور المعيشة وتربية إخوته ..لكن هذه الأم تحدت هذا الواقع الأليم، ووقفت في وجه هذه الظروف الصعبة المحبطة ..فلم تحرم أبناءها من التعليم بحجة الفقر والحاجة، وإنما دفعتهم لمستقبلهم ووقفت وراءهم بكل همتها تشد من أزرهم نحو الآمال العليا، والطموحات الواعدة التي ترجوها فيهم.

❁❁❁

(١) من حديث النفس -علي الطنطاوي

تم بحمد الله

الفهرست

مقدمة ٧

الأم التي نريد ١١

نحن من أنصف المرأة..... ١٢

الأم أساس الحضارة..... ١٨

الوظيفة الكبرى..... ٢٤

الأم التي نريد..... ٢٩

المؤامرة على الأم..... ٣٤

أمومة تصنع الأبطال..... ٣٧

الأم القدوة ٤٢

لماذا الأم تحديداً؟..... ٤٧

مدرسة العظماء ٥٠

الأم أمل الأوطان..... ٥٧

الأم منبع الإصلاح ٦٢

الأم في حياة العلماء والمفكرين ٦٥

باعت سريرها لتعلم ولدها..... ٦٦

ترملت من أجل ولدها ٧٠
رسمت طريق ولدها..... ٧٣
أنفقت عليه ليكون إمام الدنيا ٧٧
باعت ذهبها لتعلم ابنتها ٨٠
علمتني أمي الورع..... ٨٣
أخاف أن أخون عهدها ٨٨
أرى ذلك من رضا أمي ٩٢
السيدة قطعة الذهب ٩٥
أيتام لكنهم عظماء ١٠٠
الأم في حياة القادة والزعماء ١٠٥
أنا ابن هند ١٠٦
قم فالقسطنطينية بانتظارك ١٠٩
الأم التي أعاقت حلم اليهود ١١٢
اليتيم الذي أرعد أوروبا..... ١١٦
الأم التي رفضت الخيانة ١٢٠
الأم التي يلومها العالم ١٢٤
مسيح القرن العشرين ١٢٧
لا تهنئوني، وهنئوا أمي ١٣١
أم غير عادية ١٣٤
الأم في حياة المجاهدين ١٣٩

لمثل هذا اليوم أعددته ١٤١
جبنت ولم تشهد فوارس خيبر ١٤٩
وصية الخنساء ١٤٩
الحق أقوى من العاطفة ١٥٣
تخطب لولدها ١٥٧
أنجبت رجلاً بألف رجل ١٦٢
تجاهد بضفيرتها ١٦٦
الأم التي رفضت الذل ١٧٠
تفخر بولديها ١٧٣
أمهات في وجه الإحباط ١٧٧
أمي هي التي صنعتني ١٧٧
ماذا فعلت الأم السوداء؟ ١٨٠
زجت بولدها في البطولة ١٨٤
دع العجزة وامض في طريقك ١٨٨
الأم التي هزمت اليأس ١٩١
الأم التي تحدت الاحباط ١٩٥
حقا إنها الأم المثالية ١٩٨

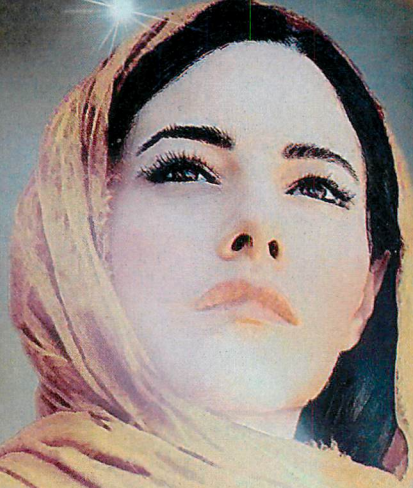

حاتم سلامة

كوني عظيمة أمًا

فكر

لقد لعبت الأم دوراً كبيراً في تاريخ أمتنا، وكانت لها مواقفها المشهودة في مناحي البطولة، فداءً وصموداً وصبراً وجلداً، عرفت رسالتها، وأدركت أن دورها في تحقيق العزة لا يقل شأناً عن دور الرجال، بل ربما يفوقه خطراً وعظماً وأهميةً، لأنها مربية الرجال، وصانعة الأبطال، وصائغة النفوس والعقول.

ومن هنا لابد أن نُوجد ونُنشيء في حياتنا هذه الأم التي تعرف قيمتها، وتؤمن بواجبها، وتزرع في نفوس أبنائها الهمة والقوة، وترضعهم الإباء والشمم، وتفطمهم على الشجاعة والإقدام، تُعلمهم أن عليهم واجبًا يؤدونه، وأن في عنقهم رسالة يحملونها، وغاية لابد من بلوغها.

دار لوتس للنشر الحر

مشروع النشر الحر